الكتاب الماسي

تاريخ ما أهمله التاريخ

بين جدران القصور

١٠

حبيب جاماتي

الإهداء

الى كل مساهم بالقول أو بالكتابة ، باللسان أو بالقلم ، فى رفع طرف من الستار عما جرى فى مختلف العصور ، خلف جدران القصور، من مؤامرات للخير أو للشر ، ومن حسنات أو سيئات ، ومن مساع صالحة أو طالحة ، اهدى هذه المجموعة من الأقاصيص التى وقعت حوادثها على هامش التاريخ ، وراء تلك الجدران وفى قاعات تلك القصور، اعترافا منى بفضل من استعنت بأقوالهم أو كتاباتهم ، ومساهمة متواضعة فى استكمال ما دونوه وسجلوه !

القاهرة

ح . ج

تصدير

منذ بضعة أعوام ، نشرت مجموعة من « خفايا القصور » في قالب قصصي ، من بين الاقاصيص التي دأبت على نشرها بعنوان شامل هو : « تاريخ ما أهمله التاريخ » في خلال السنوات الاربعين الماضية .

وفي المجموعة التي أضعها هنا بين أيدي القراء ، بعض تلك « الخفايا » التي تناولتها بالمراجعة والتنقيح ، وأضفت اليها أقاصيص أخرى لم تنشر في الكتاب السابق ، بعد أن استبعدت ما لم أر فائدة من اعادة نشره .

وهذه المجموعة الجديدة هي الحلقة السابعة من سلسلة « تاريخ ما أهمله التاريخ » التي صدر منها حتى الآن في « الكتاب الماسي » عن « الدار القومية للطباعة والنشر » ست حلقات هي :

الحلقة الاولى : «بطولات عربية » .

الحلقة الثانية : « الناصر صلاح الدين » .

الحلقة الثالثة : « مصر مقبرة الفاتحين » .

الحلقة الرابعة : « أندلس العرب » .

الحلقة الخامسة : « الجنة في ظلال السيوف » .

الحلقة السادسة : « مصر الأقدمين » .

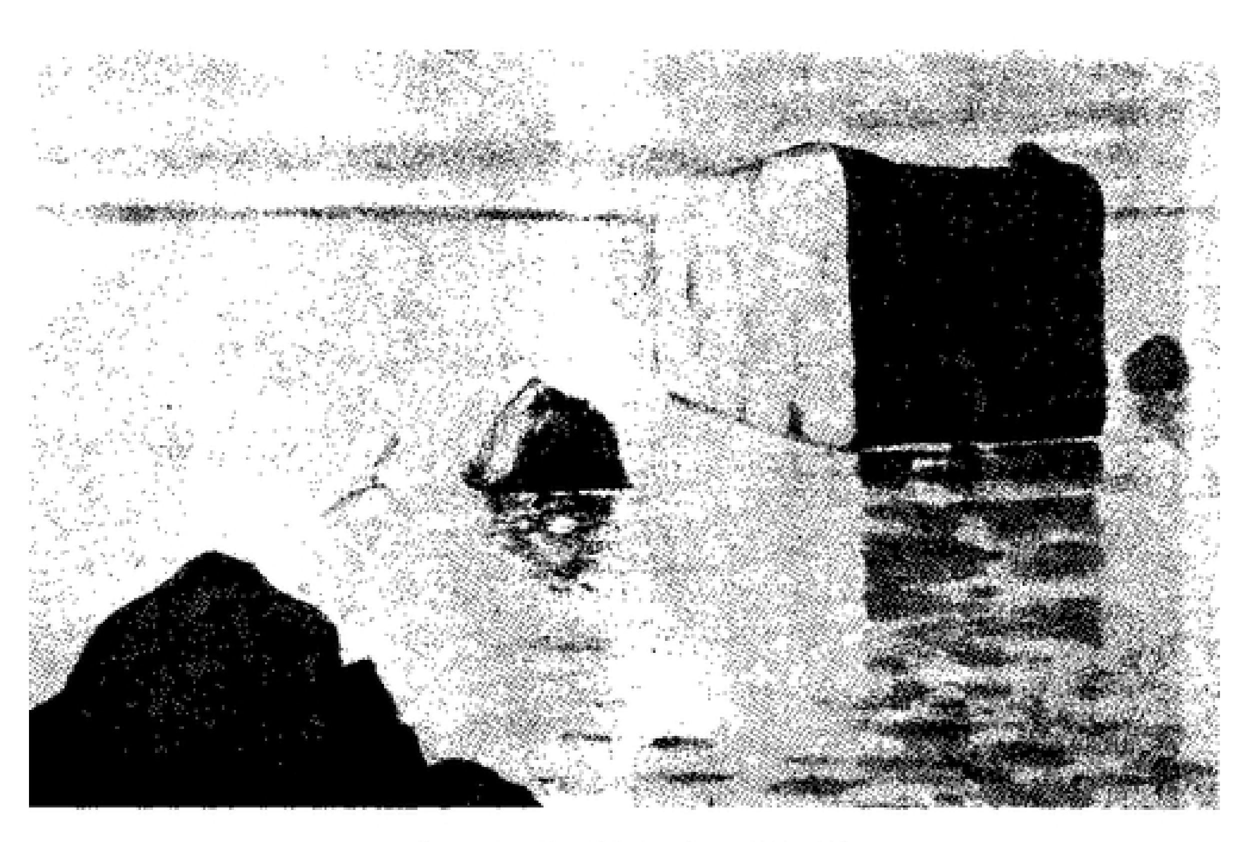
وهذه الحلقة السابعة ، التي جعلت عنوانها « بين جدران القصور » تضم تسع عشرة أقصوصة تصف حوادث صغيرة وقعت خلال أحداث كبيرة ، أو تصف أحداثا كبيرة جرت نتيجة حوادث صغيرة . كلها جرت وقائعها في داخل القصور ، خاصة في خدور الحريم ، ولعبت فيها المرأة دورا كبيرا أو صغيرا . فقلما خلا حادث ، أيا كانت أهميته ، أو حدث أيا كان مداه ، من أثر للمرأة ؛ اما لأنها تدخلت فيه تدخلا مباشرا ، مدفوعة بعامل الطمع أو الحب أو الحقد ، واما لأن الرجال انقادوا لها مستضعفين ، أو اتخذوها أداة لبلوغ أهدافهم وتحقيق مآربهم ، واما لأنهم بسببها قد ضلوا السبيل وحادوا عن جادة الصواب ، أو عادوا الى صوابهم وسواء السبيل ، بعد ضلال أو تضليل !

وفي كل حادث صغير ، وفي كل حدث كبير ، درس وعبرة ، لمن يريد أن يدرس ويعتبر !

وفي مطالعة هذه الاقاصيص ، على كل حال ، تسلية وفائدة ...

بأمر الحاكم بأمره

كان الحبيبان يتناجيان على صخور
الشاطىء بالإسكندرية وتحت صخور
الشاطىء دفنا !



من آثار الماضي على شاطىء الاسكندرية

كانت مصر في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للهجرة ـ أي أوائل القرن الحادي عشر للميلاد ـ تئن تحت نير من الظلم الأصم ، وذلك في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي ، أو الحاكم بامره كما كان يلقب نفسه .

ولد الحاكم بالقاهرة في سنة ٣٧٥ هجرية ، الموافقة لسنة ٩٨٥ للميلاد ، وهو سادس الخلفاء الفاطميين ، وأول واحد منهم رأى النور في مصر ، التي فتحها القائد جوهر الصقلي ، في عهد جده المعز لدين الله ، فقدم اليها من القيروان ، وحل بمدينة « القاهرة المعزية » التي أنشأها له القائد الفاتح في ثلاثة أعوام ، من ٣٥٩ الى ٣٦٣ للهجرة ، أي من ٩٧٠ الى ٩٧٣ للميلاد .

وقد بويع الحاكم بأمر الله بالخلافة بعد وفاة أبيه العزيز في سنة ٣٨٦ للهجرة ، الموافقة لسنة ٩٩٦ للميلاد . قبل أن يتم الثانية عشرة من العمر . وقد حكم مصر نحو ربع قرن . في الوقت الذي كان يتولى فيه العرش في بغداد الرابع والعشرون من الخلفاء العباسيين ، القادر بالله !

***

كان في مدينة الاسكندرية ، في ذلك العهد ، رجل رث الحال ؛ معدم المال ، يعيش من زراعته في كوخ حقير ، بعيدا عن ضوضاء الناس وشرورهم ، ليس له من قريب أو حبيب الا ابنته .

وكانت الفتاة « عمرة » بارعة الجمال ، ممشوقة القوام ، تناهز من العمر أربعة عشر ربيعا .

حبسها أبوها في كوخه ، ومنعها الهواء قبل العيون ، لا ظلما لها أو استبدادا منه بها ، ولكنه خشي عليها صولة الحاكم بأمر الله !

على أن أبا عمرة كان يأذن لفتاته أن تخرج في أوقات من النهار معلومة الى شاطىء البحر ، فتبثه أحلام صباها ، وتحمل أمواجه مكنونات قلبها ، ونفثات صدرها ، توجهها الى حبيب هي أجهل به من البحر !

ولقد طالما مزجت عمرة دمع عينها الرائق العذب بأمواه ذلك العجاج الهائج الملح ، لذكرى والدتها الخالية ، وشقيقها الثاوي ، وقد بكتهما طفلة ، وعهدتهما صغيرة ، فانطبعت في ذاكرتها صورتاهما ؛ وخير الذكريات ما نما مع العمر ، وانطبع في النفس الفتية .

وكان أبوها اذا عاد من حقله يوافيها الى متنزهها بصنارتين لكل منهما واحدة ، فيصطادان الاسماك على الشاطيء ، ويعودان بما سنح من الصيد فتطبخه له فتاته •

وكان الوالد يحذر عمرة شر الرجال بل العيون الرقيبة ، اشفاقا منه عليها ، وكان فيما قاله لها ذات يوم :

ـ أي عمرة المحبوبة ، انما عيون الرجال شر من صنارة الصياد . ينصبها ساقطو النفوس منهم للفتيات البريئات ، فيعلقن بها كما تعلق الاسماك الصغيرة بصنارتك . فحذار يا بنية شرهم انه لعظيم !

دامت الحال على هذا المنوال مدة من الزمن ، أمن فيها أبو عمرة المسكين شر الحاكم وضربات القدر ، ونسي أن الكدر يجيء به صفو الليالي• وظن نفسه بعيدا عن جواسيس الحاكم وزبانيته • وما درى أنهم قد رصدوا فتاته ، وأن أمرها وصفتها قد بلغا الحاكم بأمره ، فاشتاق الى رؤيتها ، وعقد النية على انتزاعها من يد أبيها •

***

أرسل الحاكم رسله يطلب الابنة من أبيها ، وما كان ليجول في خلده أن فلاحا مسكينا يجرؤ على رد طلبه وعصيان أمره •

ولكن حب الوالد ، اذا أحس بخطر يهدد من يحب ، لا يخيفه ملك جبار ولا سلطان ظالم •

رفض الأب أن يسلم كنزه ، وأن يحفر قبر ابنته بيده ، فرد الرسل خائبين ، وعمد في ليلة ليلاء الى الهرب فرارا من وجه الظالم ، وظل يضرب في البلاد هائما ولهان كطير الحمام احس الباشق يهدد فراخه ، فسالت نفسه هلعا وطارت شعاعا !•

ولكن أبا عمرة المسكين ، كان أضعف حولا وأقصر باعا من أن يفلت من يد ذلك الجبار العنيد ، الذي كان يملأ النفوس رعبا وهولا ، والذي كانت عيونه وأرصاده في طول البلاد وعرضها •

خرج الاب مع ابنته ذات يوم ، وبعد أن طافا خارج المدينه ، جلسا على مقربة من ذلك العمود الذي نصبه الرومانيون تخليدا لذكرى مرورهم في مصر وهناك داهمهما الجند وألقى القبض عليهما ، فأعيد الشيخ الى كوخه حيث قضى أسفا ولوعة • واقتيدت الابنة الى قصر الحاكم حيث فتك الجزار القاسي بالذبيح الطاهر ، وألقى به في زاويه من زوايا القصر ، فقضت الابنة المسكينة أياما وليالي ، تبكي كل ما يبكى عليه في هذه الحياة من شرف ضائع ، وحرية مفقودة ؛ وعيش منغص ، ووالد لم تدر أميت هو فتبكيه أم حي فتعلل النفس بلقائه الى أن ترك الدمع في خديها أثرا ، وذهبت من ذلك الوجه الصبيح بهجته ؟

وكان على باب القصر الخارجي حارس أمين قد اصطفاه الحاكم للسهر على ضحاياه يدعى « قاسما » ، فكان هذا الحارس اذا ما أظلم الليل وقف ديدبانا يجول تحت شرفات القصر ، يرقب المارة والناظرين ، حتى اذا

خان القدر أحدهم فألقى نظرة على شرفة من شرفات القصر ، أخمد قاسم أنفاسه لساعته !

وكان قاسم منذ قيد الذبيح البرىء الى قصر الحاكم يسمع طوال الليالى ، وهو قائم على حراسته ، أنينا يخرج من غرفة عمرة ، فيقطع نياط قلبه ، ويترك أثرا أليما فى نفسه !

وكان يسمع نداءها لوالدها ، ومناجاتها لروح والدتها ، فيود لو أمكنه أن ينقض على ذلك القصر فيهدمه بيديه حجرا حجرا ، لينقذ تلك البائسة التى لم يرها . ولكنه درى بها ضحية من ضحايا حاكمه الظالم ؟

بدأ قاسم بعاطفة هى شفقة ورأفة . وما لبثت تلك العاطفة أن تحولت الى حب فوجد فغرام فهيام ، أنساه واجبه وأمانته لسيده . واطار لبه وعقله ، فأمسى وأصبح يتحين الفرص ويفكر فى أحبولة أو دسيسة يتمكن بها من انقاذ تلك الفتاة ولو ببذل دمه وروحه .

***

وكان للحاكم شقيقة يعرفها التاريخ باسم « ست الملك » ولكنها أعجوبة من عجائب السماء ، لم تكن على شىء من قسوة أخيها وظلمه وفظاظته .

وكانت ست الملك كثيرا ما تختلف الى حرم أخيها ، تواسى هذه البائسة وتسلى تلك ، فتلقى فى ظلمات ذلك الجحيم بريقا من نور السماء .

قدمت زائرة كعادتها ، وخلت بعمرة المسكينة التعسة ، فهالها ما رأته فى وجهها من أثر الحزن العميق والشقاء الذى لا حد له ولا قرار .

قصت عليها الفتاة قصتها ، والعبرات تخنقها ، والزفرات تشهد للسانها بأليم ما تقاسيه من جوى ولوعة وأسى . فرقت ست الملك لها ، ولم تغادرها الا بعد أن عقدت العزيمة على تسهيل سبيل الفرار لها . وبعد أن وعدتها بذلك تركتها مؤملة راجية .

وفكرت ست الملك فى الطريقة المثلى لانقاذ فتاتها ، فلم تر سبيلا آمن وأضمن للنجاح من أن ترشو الحارس الموكل بحراسة القصر ليلا .

دعت اليها قاسما ، وأفضت اليه بما يجول فى صدرها ، بعد أن بذلت له الوعود الخلابة ، فارتمى قاسم على قدمى مولاته يسكب دموع الفرح والغبطة ، وأفضى اليها بما علق فى نفسه من حب الفتاة حبا لحمته الشفقة وسداه الهيام !

وكان الحاكم بأمر الله يكره أخته ست الملك ولا يتردد فى الكيد لها ، وقد اتهمها يوما بتهمة شنعاء أوقدت فى صدرها نار البغض ، وأثارت فى نفسها رغبة الانتقام، فسعت اليه بمكر ودهاء، وبدأت تنفذ خطتها بمساعدة ضحايا أخيها على الافلات من يده .

وكان ذلك من حسن حظ عمرة التي استفادت من العداء القائم بين الاخت وأخيها !

فبعد أن رسمت ست الملك خطة الفرار . وأطلعت الحارس عليها ، وأعدت لها العـدة ، انسلت في ليلة ظلماء الى غرفة عمرة وأدلت بها من النافذة الى الارض ، على سلم كان قاسم قد حاكه بيده ، فتلقاها الحارس بين ذراعيه ، واحتملها جاريا في ظلام ذلك الليل الى قارب كان ينتظرهما على النيل !

وهكذا انتقمت الاخت من أخيهـا . وفاز الحبيب بحبيبته ، وأفلتت عمرة من الأسر !

***

بلغ قاسم وعمرة الاسكندرية عملا بارادة الفتـاة التي كانت تذوب شوقا الى لقاء أبيها غير حاسبة حسابا لما ينتظرها به القدر .

بلغا الكوخ فاذا به قد تداعت جدرانه ، واذا به قد أقفر من ساكنيه!

فبكت عمرة بكاء مرا . وسقت قبر أبيها بما تبقى من الدموع في عينيها الداميتين ، وانصرفت بمـا تبقى في قلبهـا الحزين من العـواطف الى حب منقذها قاسم ، ونامت آمنة شر ما يخبئه لها القدر ، وظنت نفسها البريئة أن السماء قد رأفت بها ، وأنها قد اكتفت بما نالها من شقاء وبؤس وعذاب اليم !

***

ثارت ثائرة الحاكم بأمر الله ، فأرغى وأزبد ، وبدأ يصب جام غضبه ونقمته على حراسه وجواريه ! وبث رسله وجنده يبحثون عن الفارين ، واعدا متوعدا !

وخافت ست الملك أن يلحق بقاسم وعمرة أذى . وأن تعاد الفتاة الى سجنها ، ويحكم على حبيبهـا بالموت شر ميتة ، فأرسـلت أيضا رسـلها وجواسيسها للبحث عنهما ، واعداد العدة لفرارهما الى بعيد .

فكان نضال عنيف بين الأخ والأخت : الحاكم يسعى الى اهلاك نفسين ، وأخت الحاكم تسعى الى انقاذهما !

***

جلس الحبيبان على صخرة من صخور شاطىء البحر في الاسكندرية، حيث أقامت اليوم يد العمارة فنـادق ومنازل ومصـانع ،يتبادلان حبهما النامي ، ويتساقيان أحاديثه ، وأمامهما البحر يوحي اليهما انهما حران طليقان ، ويوسوس لقلبيهما أن يد الظلم بعيدة عن أن تنالهما .

سكرا بنشوة الحب فلم يفطنا الى الخطر الداهم ، ولم يفـكرا في أن السعادة لا تدوم الا اذا أحاط بها سياج من الحذر والتكتم .

أجل ، هي ساعة نسيا فيها أنهما مهدور دمهما ، وأن لهما عدوا يرتجف لذكر اسمه وادي النيل وما دونه من البلاد . وأن ذلك العدو العنيد لن يهدأ له بال الا بعد أن يتم له الاقتصاص منهما والقضاء على هنائهما :

كان الحبيبان على شاطىء البحر ...

واذا بجند الحاكم قد أحاطوا بهما احاطة السوار بالمعصم . وما هي الا لحظة حتى أثقلا بالقيود والأغلال ، وجرا الى قبر مظلم هو سجن من سجون تلك الايام السود .

وزفت الى الحاكم ابن العزيز بشرى القبض على الفارين المذنبين ، وقص عليه أنهما كانا يتشاكيان الحب على صخرة على شاطىء البحر . فضحك ضحكة نمت عما في نفسه من حقده ومكر ...

ثم أومأ الى رسله قائلا :

ـ قولوا للجند وللجلادين ألا يمسوا الحبيبين بأذى ، وأن يقودوهما حرين طليقين الى حيث كانا يتشاكيان ويتداعبان . ثم يحفروا لهما حفيرة ويدفنوهما تم حيين !

***

اذا قصدت أيها القارىء الى مدينة الاسكندرية ، فسر حتى الصخور المشرفة على مدخل الميناء الشرقي ، وسل خبيرا أن يهديك الى محلة « طابية السلسلة » واذا بلغت ذلك المكان . فاعلم ان أسس ما تراه من الابنية مشيدا مكان تلك الطابية ـ قائمة على بقايا الحبيبين اللذين ذهبت بهما فتيين يد الظلم ، ظلم الحاكم الفاطمي ، أو الحاكم بأمر الله . أو الحاكم بأمره .

وقد تآمرت ست الملك على أخيها مع أعدائه الكثيرين ، فعهدت الى صنيعتها ابن دواس بقتله ، فطلع عليه بشرذمة من رجاله وأعوانه ، وقتلوه شر قتلة ، وأخفوا جثته في القرافة ...

وكان ذلك سنة ٤١١ للهجرة الموافقة لسنة ١٠٢٠ للميلاد .

عرشان وامرأتان

سلكت المرأة لبلوغ أهدافها جميع
الطرق . ولكنها ماتت كئيبة قبل أن
تبلغ منها هدفا واحدا !



طهران قديما

كانت جزءا من دولة السلجوقيين

فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد ، والخامس للهجرة ، كان الفاطميون يحكمون مصر ، ويدعى لخلفائهم فى مساجدها ، على حين كان الخلفاء العباسيون منكمشين فى بغداد ، مستسلمين للخمول ، تاركين تصريف شئون الرعية فى مختلف الاقاليم والامارات لمن يضع اليد عليها من الغزاة وذوى الجرأة والمطامع .. وكان الامراء السلجوقيون الاتراك قد انشئوا لانفسهم ملكا من أشلاء الامبراطورية العربية الاولى . ولما مات « الب ارسلان » خلفه ابنه « ملك شاه » فى سنة ٤٦٤ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٠٧٢ للميلاد ، فبسط نفوذه حتى عم بلاد فارس والعراق وسورية والحجاز واطراف اليمن ، وكان ساعده الايمن وزيره « نظام الملك » الداهية السياسى والادارى والعسكرى الذى يدين له السلجوقيون بمعظم ما بلغوه من مجد وسؤدد .

لكن « نظام الملك » قتل فى سنة ١٠٩٢ للميلاد الموافقة لسنة ٤٨٥ للهجرة . فكان مصرعه كارثة على الدولة السلجوقية ، وشعر « ملك شاه » بالفراغ الذى تركه الوزير النابغة بعد موته . فتشاور مع معاونيه ورفاقه المقربين ، فيما يجب أن يقوموا به من أعمال لتحقيق الاهداف التى كان « نظام الملك » يسعى اليها لاعلاء شأن الدولة وتوسيع حدودها . وكان ممن استشارهم السلطان فى الامر ؛ زوجته وشريكته فى السراء والضراء « تركان خاتون » التى طالما كانت آراؤها نبراسا يهتدى به السلطان ووزراؤه ، ومن بينهم « نظام الملك » نفسه ، حتى لقد كانت هى التى أوعزت اليه قبل وفاته ببضعة أعوام ، بالسير على خطة جديدة فى السياسة والحرب ، ترمى الى انشاء « امبراطورية عربية تركية » تضم بين دفتيها جميع البلدان الخاضعة لحكام مسلمين ، من حدود الهند الى المغرب الاقصى ، فلم يلبث ان بدأ يمهد السبيل لتحقيق هذا الحلم ، لانه كان يعتقد أن انشاء امبراطورية جديدة على غرار الامبراطورية الاسلامية الاولى ، عمل من الضخامة بحيث لايقوى على القيام به ، أو حتى مجرد الاقدام عليه ، وزير واحد ، أو سلطان واحد !

فلما مات « نظام الملك » قرر « ملك شاه » أن يواصل بنفسه السعى للغرض الاسمى والهدف البعيد . وشجعه على ذلك تحريض زوجته « تركان خاتون » والحاحها عليه بألا يترك يوما واحدا يضيع سدى ، وكانت تقول له فى معرض تذكيره بما صنعاه معا بالأمس وما بقى عليهما أن يصنعاه معا فى الغد القريب :

ــ لقد طالما عللنا النفس بأن نجعل من بغداد عاصمة لدولة عربية

تركية ، كما فعل العباسيون الاولون ، عندما جعلوا منها عاصمة لامبراطورية عربية فارسية . فما علينا الا ان ننسج على منوال الرشيد والمأمون . ولكن العنصر التركى يجب أن يحل محل العنصر الفارسى ؛ وهذاهو الفارق بين امبراطورية تداعت أركانها ، وامبراطورية نعمل نحن الآن لاقامتها على دعائم جديدة

ــ انني متفق معك يا « تركان » على هذا الذى تقولين . ولكن التنفيذ أصعب بكثير من رسم الخطوط . فهناك عقبات لا تفطنين اليها .

ــ انني أفطن الى كل شيء ، وأقدر كل شيء ، وأدرك كل شيء . والذى صنعه الفرس من قبل لا نعجز نحن الترك عن صنعه من بعد ... لقد نجحنا فى حمل الخليفة « المهتدى بالله » على طلب ابنتنا زوجة له . وها هى ذى تحتل فى قصر الخليفة المكانة الاولى بين النساء . ومما ضاعف من شأن هذه المكانة أن ابنتنا الحبيبة وضعت مولودا ذكرا هو حفيدك وحفيدى . وقد طلب الينا الخليفة ان نختار له الاسم الذى نريده فاخترنا له اسم « جعفر » وجعفر الآن محط آمالنا وموضع اهتمامنا : فهو الذى سيتحقق على يديه الحلم الذى يداعبنا فى الليل والنهار على السواء !

ــ كيف هذا ؟

ــ نعم : فجعفر سيخلف أباه على عرش بغداد ، وسيكون امام المسلمين وأمير المؤمنين فى مستقبل الايام !

ــ ولكنه ليس كبير أبناء الخليفة يا عزيزتى . وللمهتدى أبناء آخرون غيره ، من نساء أخريات ، وكبيرهم هو أبو العباس احمد ، وهو الذىأعده المهتدى ليرث عنه العرش والخلافة !

ــ هذا ما يجب أن نحول دون وقوعه ، وهذا ما يجب أن يفهمه المهتدى من الآن : فاما أن يوصى بالملك والخلافة لولده وحفيدنا جعفر ، واما أن يدرك أن حياته فى خطر .. ففى وسعنا ونحن أصحاب السلطة والقوة فى عاصمته نفسها ، أن نملى عليه ارادتنا بالحسنى أو بالاكراه ! وسأذهب اليه فى الحال ، وأفاتحه فى هذا الامر ، وكن واثقا اننى سأحمله على قبول ما نريد ، راضيا أو مرغما ...

سكت « ملك شاه » لحظة . ثم قال لزوجته :

ــ افعلى مايحلو لك . فاننى أعلم انك اذا ماعولت على أمر فلن يجدى معك النصح أو الارشاد . وكل ما أرجوه هو ان يوفقك الله فيما انت مقبلة عليه ..

كان « ملك شاه » ضعيف الارادة أمام زوجته « تركان خاتون » العنيدة العاتية . وكان يذعن لمشيئتها كلما اختلف معها فى رأى ، معتقدا ان فى اذعانه لها الخير كل الخير له ولها وللاسرة المالكة ، لانها لم تقدم على أمر الا أدركته ، ولم تستهدف غرضا الا بلغته ، اما بالحق واما بالباطل !

ثم ماذا كانت تريد تركان خاتون ؟ أفلا ترمى الى انشاء امبراطورية واسعة يجلس « ملك شاه » على عرشها ؟ أفلا تفكر فى أن يرث الخلافة العباسية حفيدها الذى يجرى فى عروقه دم تركى هو دم ابنتها ، حتى اذا ما انتهى الملك الى ذلك الحفيد ، جعفر بن المهتدى ، عمد الى تحويل الخلافة والعرش والسلطان فى آن معا من الأيدى العربية والفارسية الى الأيدى التركية ، لكى يتمكن العنصر التركى مع الوقت من السيطرة على بلاد المسلمين من الشرق الى الغرب ؟ ان هذه الخطة تروق لملك شاه ، وهو يرى فيها تحقيقا لمطامعه التى لا تختلف عن مطامع زوجته ، وتثبيتا لقدم أسرته ، وتقوية لمركزها ، ووسيلة لجعلها ترتفع الى أوج المجد والسؤدد.

***

وذهبت « تركان خاتون » الى بغداد فى موكب فخم ، وبقى « ملك شاه » فى انتظار عودتها فى عاصمة ملكه أصفهان ببلاد فارس .. فلما وصلتها قوبلت بما يليق بمقام « حماة » الخليفة ، وأم زوجته المفضلة ، وحلت ضيفة على ابنتها فى قصر «المهتدى» ، ولم تكن «أم جعفر» عالمة بما يختلج فى صدر أمها وصدر أبيها من آمال وأمان وأحلام . ولم تفكر ، وهى الزوجة الأمينة والأم الحنون ، فى أن هذا الزواج الذى أراده « ملك شاه » وأرادته « تركان خاتون » ، كان ينطوى على خطة مدبرة ، بعيدة المرمى ، تتناول مصير الدولة ومصير العرش ومصير الخلافة !

ولكن الام جاءت تطلعها على كل شىء ، وتفتح عينيها على الحقيقة، وتدفعها الى التعاون معها فى تنفيذ تلك الخطة بعد أن أصبحت أما للطفل الذى يريده جده وتريده جدته ملكا وسلطانا وخليفة فى آن واحد .. فانقادت الابنة لارادة أمها الصارمة . وفى مساء اليوم الذى وصلت فيه « تركان خاتون » الى بغداد ، كانت الزوجة تداعب زوجها المتيم بها ، وتهمس فى أذنه برغبة نبتت فجأة فى نفسها : انها تريد منه أن يثبت لها بالدليل القاطع الملموس أنه يحبها حبا لا حد له كما يقول ، وانه يفضلها على زوجاته وسراريه وجواريه جميعا ، وانها المرأة التى ملكت مشاعره واستحوذت على قلبه كاملا لا تشاركها فيه امرأة أخرى ...

أصغى المهتدى اليها فى بادىء الامر مدهوشا لايفهم لهذا الالحاح معنى . فقد أحبها فعلا ، وجعلها فى الواقع سيدة نساء القصر على الاطلاق ، فطلبها مجاب ولا يرد أحد لها أمرا فما الداعى الى هذا الحديث الذى لم تطرقه الزوجة الشابة من قبل ؟ وما الذى جعلها تشك فى حبه واخلاصه فتطلب منه دليلا قاطعا ملموسا على هذا الاخلاص وذلك الحب ؟ ! ولكنه أدرك السبب والمسبب ، عندما أفضت اليه زوجته بالدليل الذى تطلبه منه : وهو الاعتراف لابنها جعفر بولاية العرش ووراثة الخلافة من بعده !

وقطب المهتدى جبينه ، واغمض عينيه ، فلاحت له صورة « تركان خاتون » وفهم بدون اجهاد فى التفكير ، ان الأم هى صاحبة ذلك الالحاح، وان الابنة تردد فقط ما تلقنته من أمها على أثر وصولها الى القصر ، فأخذ رأس الزوجة المحبوبة بين يديه ، وقبلها على الوجنتين بحرارة وحنان ، وهمس فى أذنها كما همست هى من قبل فى أذنه :

ـ سيكون لك ما تريدين أيتها الحبيبة ... ولكن لا بد لي من تمهيد السبيل لقرار على هذا الجانب من الأهمية . فلجعفر اخوة أكبر منه سنا ، وما زلت أنا في العقد الثالث من العمر والأيام بيننا ، والوقت أمامنا طويل ، وسوف أعد العدة من الآن لتحقيق أمنيتك هذه ...

وعادت الابنة الى امها وقصت عليها ما حدث . فنامت « تركان خاتون » ليلتها الاولى في بغداد هادئة البال مطمئنة الى أن الخطوة الاولى في تنفيذ الخطة قد مرت بسلام وعلى خير ما يرام !

أنبأت « تركان خاتون » زوجها بنجاح المهمة التي جاءت من أجلها الى بغداد ، ودعته الى موافاتها في عاصمة العباسيين ليكونا معا جنبا الى جنب على مقربة من الخليفة ، كيلا يعدل عن رأيه ويهمل وعده . فلبى « ملك شاه » دعوتها وأسرع الى بغداد فوصل اليها في شهر رمضان سنة ٤٨٥ ـ الموافقة لسنة ١٠٩٢ للميلاد ـ فاستقبله المهتدي متظاهرا بالابتهاج وبالغ في الترحيب به . وكان اول ما صنعه السلطان ان أعلن في نهاية شهر الصيام انه قرر اتخاذ مدينة « أصفهان » مقرا له في الصيف وجعل بغداد مقره الشتوي . وكان يرمي بذلك الى تبرير بقائه في مدينة واحدة مع الخليفة جانبا من السنة .

وخرج « ملك شاه » الى الصيد والقنص في أيام العيد ورجع الى بغداد في الثالث من شهر شوال . واكل من الصيد الذي جاء به،فأصيب بتسمم قيل عنه انه ناتج عن لحم فاسد . ومات بين ذراعي زوجته التي ساورتها الشكوك ، ثم تحولت شكوكها الى يقين بأن « المهتدي » هو الذي سعى الى دس السم للسلطان لكي يتخلص منه ويتهرب من البر بوعده ، ويحتفظ بولاية العهد لكبير أبنائه دون حفيدها جعفر !

وكانت الظروف حرجة ، والساعة رهيبة ، فكظمت المرأة غيظها ، واضطرت الى تعديل خطتها نكيلا يبطش بها الخليفة فيفلت العرش من يدها في بغداد واصفهان على السواء ، خصوصا ان كبير أبناء ملك شاه الثلاثة ، « بركيا روق » ، كان يرتقب خلو العرش ليتبوأه خلفا لأبيه .

وكانت « تركان خاتون » تؤثر ابنها « محمودا » على أخويه « بركياروق » و « سنقر » ، وتمهد السبيل له ـ في حياة والده ـ لكي يرثه على العرش في أصفهان ، كما كانت تمهد السبيل لحفيدها جعفر لكي يرث أباه المهتدي على عرش بغداد .

وكان لابد من موافقة المهتدي على تولية خلف للسلطان الراحل . فالخليفة كان يحتفظ لنفسه بالسلطة الروحية واقرار الملوك على عروشهم ، بالرغم من ان السلطان كان في الواقع صاحب الأمر والنهي في بغداد نفسها ! ولهذا ، اسرعت « تركان خاتون » الى المهتدي تعرض عليه الأمر ، فأقرها على تولية ابنها محمود خلفا لأبيه ، واخفت المرأة خبر وفاة السلطان عن رعيته وعن ولديه الآخرين على الخصوص ، ورحلت عن بغداد قاصدة الى أصفهان ، ومعها جثة زوجها ملك شاه ملفوفة في كفنها ، فكانت رحلة قلما سجل التاريخ مثلها .

كان محمود فى الخامسة من العمـــر عنـــدما مات أبوه . وكان « بركياروق » فى الخامسة عشرة ، وهو كبير أبناء ملك شاه من زوجة اخرى . وقد صحب محمود أمه فى رحلتها من بغداد الى اصفهان . أما « بركياروق » : الوارث الشرعى لعرش ابيه ؛ فقد كان باقيا فى اصفهان وظل يجهل خبر موت السلطان الى أن وصلت الى العاصـــمة طلائع الموكب ، واصدرت « تركان خاتون » أمرها بطرد ابن زوجها من البلاد ، ودعت الشعب الى الاعتراف بمحمود ومبايعته خلفا لأبيه .

وانقســم الشعب الى فريقين ، ودارت رحى الحرب الأهلية فى أرجاء السلطنة ، فقاد بركياروق جيشـــه ، وقادت « تركان خاتون » بنفسها جيش ولدها محمود ... وهذا ما كان المهتدى يرجوه ويتمناه : فان اقتتال الأخوين فى سبيل العرش يضعف هـــذا ويضعف ذاك على السواء . وباضعاف الدولة السلجوقية ، يسترجع الخليفة العباسى بعض السلطة التى فقدها ، ويتحرر من القيود التى فرضـــها عليه سلاطين أصفهان .

وفى سنة ١٠٩٣ ـ الموافقة لسنة ٤٨٦ للهجرة ـ دارت رحى المعركة الفاصلة ، على أبواب العاصمة الفارسية ، بين أنصار الأخ الكبير وأنصار الأخ الصـــغير ، ورئيت تركان خاتون ممتطية صهوة جوادها ، تحث رجالها على القتال وتتقدم الصفوف وتقارع الأبطال فى الميدان والسيف بيدها يقطر دما . ولكن شجاعة السلطانة الوالدة لم تكن كافية لاحراز النصر . فان جيش غريمها كان أوفر عددا وعدة من جيشها ؛ فانهزمت فى المعركة ، واضطرت الى التقهقر فارتدت الى العاصمة وتحصنت فيها .

غير أن القواد الموالين لها أقنعوها بأن مواصلة الصـــمود فى وجه العاصفة لن يجديها نفعا ، وان الصلح الشريف على تقسيم المملكة بين الأخوين ، خير من الاستمرار فى حرب طاحنة قد تودى بمصالح الاثنين ، بل قد توردهما موارد الهلاك .

فأذعنت تركان خاتون للنصيحة مرغمة ، وعقدت مع « بركياروق » صلحا تم بموجبه اقتســـام المملكة ، فاحتفظ محمود ـ برعاية أمه ووصايتها ـ بالعاصمة أصفهان وبلاد فارس ، واحتفظ « بركياروق » بالاقاليم الاخرى ، ومنها العراق حيث بغداد مقر الخلافة العباسية .

ولكن هل هدأت فى نفس تركان خاتون ثورة الطموح الى المجـــد والاستئثار بالسلطة ؟ كلا ! .. فقد جبلت تلك المراة على حب المغامرة وركوب المخاطر . وما ان استقر بها وبابنها محمود الحال فى اصفهان ، حتى راحت من جديد تعد العدة لاستئناف السعى عنـــدما تســـنح الفرص ، لا فى سبيل عرش واحد فى فارس ، بل فى سبيل العرش الآخر ايضا ، فى بغداد ....

وذهبت اليها فى هذه المرة ابنتها زوجة الخليفة وام جعفر . وأملت السلطانة ارادتها على ابنتها فى اصـــفهان كما املتها عليها من قبل فى بغداد . وعادت الابنة الى زوجها الخليفة وقد بيتت فى صدرها أمرا . وكانت آخر كلمات همست بها تركان خاتون فى أذنها ، وهى تودعها :

ـ يمكنك أن تعتمدى الاعتماد كله على « شمس النهار » قهرمانة المهتدى . فهى التى دست السم لأبيك بأمر من الخليفة . وهى التى ستدس السم للخليفة بأمر منك ، فقد اكتسبتها بما أغريتها به من مال . والسبيل ممهدة لك فاقدمى ولا ترددى !

وفى الوقت الذى كانت فيه تركان خاتون تحرض ابنتها على قتل زوجها بالسم ، كان المهتدى من ناحيته يحتاط للغد ، ويتخذ التدابير اللازمة للتخلص من السلطانة الخطرة بعد ما تخلص من زوجها ملك شاه ؛ لأنه ظل يوجس خيفة منها ، ويخشى أن يعاودها الطمع فتسعى مع ابنها محمود ، أو مع ابن زوجها بركيارق ، الى التحكم فى مصير الخلافة بعد موته ، أو أن تعجل موته لتحقيق أغراضها . .

وفى سنة واحدة ـ وهى سنة ٤٨٧ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٠٩٤ للميلاد ـ أى بعد سنتين من وفاة ملك شاه فى ظروف غامضة ، حصد الموت ثلاث أرواح فى ظروف لا تقل غموضا عن السابقة . .

فقد مات عبد الله بن محمد المهتدى بالله ، وهو السادس والعشرون من الخلفاء العباسيين ، على أثر تناوله الطعام من يد القهرمانة شمس النهار ، كما مات من قبل ملك شاه ، على أثر تناوله الطعام الذى أعدته القهرمانة نفسها ، من الصيد الذى جاء به . .

وفى الوقت نفسه ماتت تركان خاتون ، زوجة السلطان ملك شاه فى اصفهان ، على أثر تناولها الطعام من يد قهرمانة صحبتها من بغداد عندما رحلت عنها حاملة جثة زوجها . .

ومات السلطان محمود بن ملك شاه فى ظروف مشابهة لتلك التى احاطت بموت أبيه ، وموت أمه ، وموت صهره المهتدى !

امرأتان بذلتا المساعى وحاكتا المكايد فى سبيل عرشين : فقد أرادت تركان خاتون أن يجلس ابنها على عرش أصفهان ويجلس حفيدها على عرش بغداد ، على أمل أن يوحد العرشان فيما بعد فلا يبقى غير عرش واحد لدولة عربية تركية تخلف الدولة العربية الفارسية التى أقامها العباسيون ، وسايرتها ابنتها زوجة المهتدى العباسى فى السعى لبلوغ هذه الأهداف . ولكن الاقدار أرادت غير هذا ، فقد مات محمود طفلا ولم يمارس الملك . وأقصى جعفر بن المهتدى ولم يخلف أباه على العرش بل خلفه ابنه الأكبر أبو العباس أحمد المستظهر بالله . وماتت تركان خاتون حزينة كئيبة مكسورة الخاطر ، دون أن تنعم ببلوغ هدف واحد من أهدافها الكثيرة .

مأساة أم خليل

الثقة بالنفس ، وقوة الارادة ، ورباطة الجاش ، صفات تجعل صاحبها أهلا لارتقاء أرفع مدارج الحياة . وقد اجتمعت هذه الصفات ، مضافا اليها الجمال وسحر البيان ، فى امرأة كانت جارية . فجعلت منها ملكة . . .



وبعد ؟ فماذا ترين خلف الحجب يا مرجانة ؟

ـ ارى ايضا اشياء كثيرة يا شجرة الدر . واقرأ في صحائف الغيب وقائع يمتزج فيها الوضوح بالغموض ، والخير بالشر ، والنور الوهاج بالظلام الدامس ! ارى واقرأ ما يدعو الى الفرح والحبور . وارى ايضا واقرأ ما يحمل على الغم والكمد !

ـ رددي على مسامعي ما ترين يا مرجانة ! تكلمي ولا تخفي عني شيئا . فشجرة الدر ترحب بالبشير ، ولا تخشى النذير !

كانت المرأتان جالستين على حصير . داخل قاعة يضطرب فيها ضوء سراج ضئيل ، وقد بسطت احداهما على الارض منديلا فرشت عليه رمالا حمراء ، وجعلت تقلب بين أناملها كومة من الكعوب والحصى . وهي عدة المنجمات قارئات الغيب .

انهما اسيرتان في تلك القاعة ذات الجدران الضخمة ، التي تطل نافذتها الصغيرة على فناء تحيط به اسوار مرتفعة ، وتمتد وراءه الجبال والوديان . تلك هي قلعة « الكرك » التي وراء نهر الاردن ، والتي يتسلط صاحبها الناصر داود على البقاع المجاورة .

واستأنفت المنجمة استطلاع ما خفي من حوادث المستقبل . مستعينة برمالها وكعوبها وحصاها ، طالبة النجدة بين حين وحين من النجوم المتلألئة في الفضاء ، خلال قضبان النافذة الضيقة :

ـ أرى محفة مغطاة بالدمقس والارجوان .. أمقعد وثير هي ؟ أم عرش رفيع ؟ لست ادري !! واراك يا شجرة الدر جالسة عليها متشحة بطيلسان براق ! وارى رجلا جالسا معك جنبا الى جنب ... وارى الرجل يختفي فتبقين وحدك على ذلك العرش ... ثم يجلس معك عليه رجل آخر في ريعان الشباب ... ثم يختفي وتبقين وحدك مرة ثانية ... ثم يجيء رجل ثالث فيجلس ويختفي مثل سابقيه ... ويتركك وحدك للمرة الثالثة ... ثم تهبط غمامة سوداء ، فتجلل العرش وتخفيه عن الانظار .. ثم ..

ـ ثم ماذا يا مرجانة ؟ ثم ماذا ؟

ـ ثم يتدفق سيل احمر يجرف العرش ويبعثر حطامه !

ـ هل هو سيل من الدم يا مرجانة ؟

ــ قد يكون كذلك يا شجرة الدر ! ولكن المنجمين قد يخطئون ، فلا تدعي للروع منفذا الى صدرك !

ــ لا أخفي عنك يا مرجانة انني بعيدة المطامع ، واسعة الآمال ، أوثر الحيطة على التراخي . انني أنظر الى المستقبل باطمئنـــان ، لانني واثقة من تحقيق مطامعي وبلوغ آمالي . ولكني أعد للمفاجآت عدتها ، لكيلا تأخذني على غرة مني !

ــ ارجو ان يصدق حـدسي ، وان تطابق الحوادث ما ينبيء به الغيب ، وهو انك ســـتجلسين على العرش ثلاث مرات وحدك ، وثلاث مرات مع شريك !

ــ وولدي ؟ ولدي يا مرجانة ؟ الا ينبئك الغيب بمــا ينتظـره في الغد ؟

ــ ولدك يا أم خليل ؟ .. لا أرى له أثرا في صحائف القـــدر .. ولكنه لا يزال طفلا في الثالثة من العمر .. فالوقت لم يحن بعد للاهتمام بأمره .

ــ ونجم الدين أبو خليل ، سيدي وسيدك ؟ ..

* * *

دخل على المرأتين في تلك اللحظة رجل طويل القـــامة ، ممتلىء الجسم ، قوي البنية ، في نحو الخامسة والثـــلاثين من العمر ، وقد ارتسمت على وجهه امارات الغبطة والارتياح ، فنهضت شجرة الدر ورفيقتها ، ووقفتا خاشعتين ، فقال الرجل :

ــ تتحدثان عني ؟

واجابت شجرة الدر :

ــ كانت مرجانة تقرأ لي ما سطر لنا في صفحة القدر يا أبا خليل !

فضحك الرجل وقال مداعبا :

ــ أما زلت تلاحقـــين المنجمين والمنجمات ، وتؤمنين بلغة الكعوب على الرمال ؟

ثم التفت الى مرجانة سائلا :

ــ وماذا تقولين لي أيتها العرافة الماهرة ؟

فأجابت مرجانة بصوت متهدج منبعث من أعماق الصدر :

ــ لا تهزأ بي وبأمثـــالي أيها المولى ، ولا تحـكم قبل أن تكذب الحوادث تكهنات المنجمين ! قلت ان شجرة الدر ستجلس على العرش مع ثلاثة ملوك ، وستكون أنت واحدا منهم ، ولكنك لن تنعم طويلا بالجاه والسلطان ! وأرى أسرتك تتخبط في أمواج من الدماء !

ــ كفى عن هذا ياوجه البوم ، ودعينا نستقبل الحوادث كما تجيء

بها الأيام . فالله وحده عليم بما قدر للانسان من خير وشر ! أما أنا ، فانني أحمل اليكما الآن خبرا سارا ، وهو ان الناصر داود قد عقد معي صلحا وحالفني على شروط طيبة . ونحن سائرون بعد أيام الى مصر ان شاء الله !

فردت المرأتان وقد ارتسم الفرح على محياهما !

ـ ان شاء الله !

***

مات الملك الكامل ـ بن الملك العادل ـ أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٦٣٥ هجرية ، الموافقة لسنة ١٢٣٨ للميلاد ، فاستولى على عرش مصر ابنه الأصغر ، سيف الدين أبو بكر ، الملقب بالملك العادل الثاني ، وقام ابنه الأكبر نجم الدين المعروف بالملك الصالح ـ وكان نائب أبيه في حلب ـ يطالب بالملك لأنه أحق به من أخيه ، وزحف على رأس قوة صغيرة نحو الجنوب ، فاعترضه في الطريق صاحب « الكرك » الناصر داود ، وأوقعه في كمين ، فتشتت رجال نجم الدين ، وبقي هو أسيرا في قبضة الناصر مع لفيف من الرجال والنساء . وأراد صاحب « الكرك » أن يساوم على الغنيمة فيتفق مع أحدهما على حساب الآخر ، وانتهى الأمر بأن عقد الآسر محالفة مع الأسير ، على أن يطلق سراح نجم الدين لينتزع عرش مصر من أخيه . ويقطع الناصر ولاية الشام .

ذلك هو الخبر السار الذي حمله الأسير الى جاريته شجرة الدر التي وقعت معه في أسر صاحب الكرك ، وهي أم ولده خليل . وكان قد أهمل زوجته « العالمة » بسببها ، وفتن بجمالها وذكائها ومعرفتها الواسعة فتزوجها فيما بعد . وكانت تلك المرأة الجريئة ترسم الخطط لابعاد كل نفوذ عن الرجل الذي استولت على لبه . وكانت تناديه « يا أبا خليل » بالرغم من أن ابنه الاكبر من زوجته هو « غياث الدين تورانشاه » .

أما « مرجانة » فهي جارية أخرى اشتراها نجم الدين في حلب ، وكانت هي وشجرة الدر تعتقدان أنهما من بلدة واحدة ، في جبال القوقاز ، حيث أخذهما النخاسون طفلتين صغيرتين وباعوهما الى الأمراء والحكام في أرض الشام . وكانت مرجانة تهيم بحب سيدها نجم الدين ، وتتفانى في خدمته ، وتغار من شجرة الدر وسلطانها عليه ، ولكنها كظمت غيظها ، وآثرت التقرب من المرأة المختارة والتزلف اليها ، على أن تستغل نفوذها ، وتنتقم منها اذا ما سنحت الفرصة للانتقام .

وأحبتها شجرة الدر لأنها كانت تؤمن بقراءة الغيب و « ضرب » الرمل واستطلاع الفلك . وهي فنون درستها مرجانة على رجل من الفرس الاسماعيليين عند ما كانت ملكا لأحد امرائهم في جبال اللاذقية ، وعرفت المنجمة كيف تستخدم علمها لبلوغ مآربها ، فانقادت شجرة الدر لنصائحها وصدقت كل تكهناتها وحرصت على صداقتها . وعند ما رحل نجم الدين عن حلب قاصدا الى مصر ، أخذ معه صفيته

شجرة الدر ، التي طلبت اليه أن يصطحب مرجانة أيضا فأجابها الى طلبها . وهكذا قضت المرأتان سبعة شهور أسيرتين مع سيدهما فى قلعة الكرك ، ثم وصلتا معه الى مصر بعد أن فك الناصر داود أسره .

* * *

خلع الملك الصالح نجم الدين اخاه الملك العادل سيف الدين ، وزج به فى السجن حيث بعث اليه بمن قتله خنقا ، فى عام ٦٣٧ للهجرة الموافقة لسنة ١٢٤٠ للميلاد . واستقل بملك مصر فأحسن التصرف واصلح الأحوال ، واصبحت شجرة الدر سيدة القصر ، وصاحبة الكلمة المسموعة فى كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة . ولكنها فقدت وحيدها صبيا .

والملك الصالح هو منشىء فرقة المماليك البحرية الذين كانوا عماد عرشه ، والذين شيد لهم القصور فى جزيرة الروضة بالنيل .

وقالت مرجانة لرفيقتها السابقة فى الأسر :

ـ ها قد جلست على العرش مع الملك الصالح بعد أن أصبحت زوجته ، فتحققت المرحلة الاولى من تكهن الكرك ، فماذا أعددت للمنجمة من عطاء ؟

فأجابت شجرة الدر :

ـ عقدا من اللؤلؤ يا مرجانة ، وقبقابا من خشب الصندل المموه بالذهب ! ولكن ما تكهنت به بكلمات غامضة عن ولدى قد تحقق ايضا ويا للأسف ، فقد مات خليل ، ولن يجلس على العرش بعد أبيه !

ـ عليك يا مولاتى أن تنجبى للملك الصالح « خليلا » آخر !

ـ وابنه البكر ، غياث الدين تورانشاه ؟

ـ قد تزيحه الاقدار من طريقك ، كما أزاحت أمه وجعلتها مهملة فى اركان القصر !

ـ ليستجب الله دعاءك يا مرجانة !

* * *

لكن الله لم يستجب دعاء السوء هذا . فقد مات الملك الصالح نجم الدين بعد مرض عضال عانى منه الأمرين ، فى عام ٦٤٧ للهجرة ، الموافق لعام ١٢٤٩ للميلاد ،تاركا ولدا وحيدا هو غياث‌الدين تورانشاه ، الملقب فيما بعد بالملك المعظم . وكانت وفاة الملك الصالح صدمة قوية ، لانها حدثت فى أثناء المعارك التى نشبت بين المصريين والصليبيين بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع ، الذى نزل فى دمياط فى الخامس من شهر يونيو سنة ١٢٤٩ ، وجعل يتأهب للزحف على القاهرة بطريق المنصورة ، وذلك قبل أن توافى المنية الملك فى هذه المدينة بخمسة شهور .

أخفت شجرة الدر خبر وفاة نجم الدين عن الجيش والشعب ،

وواصلت تصريف أمور الدولة بمفردها ، مستعينة برهط من الخلصاء والمقربين ، وبعثت فى طلب غياث الدين تورانشاه ، وكان حين ذاك فى ارض الشام نائبا عن أبيه ، واستغرق سفر الامير ، خليفة الملك الراحل ، ثلاثة شهور حافظت فيها شجرة الدر على السر الرهيب ، وتمكنت من احراز انتصارات باهرة على الافرنج ، فأوقفت زحفهم ومزقت كتائبهم ، وكانت تصدر الأوامر والمراسيم مذيلة بخاتم الملك الصالح مدعية انه مريض يلازم الفراش !

وقالت مرجانة لرفيقتها السابقة فى الأسر :

ـ ها قد اختفى الرجل الأول وجلست وحدك على العرش ، فتحققت المرحلة الثانية من تكهن الكرك . فماذا أعددت للمنجمة من عطاء ؟

فأجابت شجرة الدر :

ـ سوارا من الذهب المرصع بالجواهر الكريمة يا مرجانة ،وقبقابا من خشب الصندل المموه بالذهب . ولكن هذه المرحلة الثانية محزنة مؤلمة ، فقد مات الرجل الوحيد الذى أحببته وأحبنى فى هذا العالم !

ـ الرجال كثيرون يا مولاتى ، واى رجل منهم يستطيع أن يقاوم سحر هذا الوجه الفتان ، وسهام هاتين العينين ؟ ولكن تورانشاه فى الطريق ، فهل يصل الى مصر ؟

فانتفضت شجرة الدر وقالت :

ـ اسكتى ! اسكتى يا مرجانة ! انه لخاطر فظيع يخطر لى الآن! . .

* * *

وصل الملك المعظم غياث الدين تورانشاه الى المنصورة ، فأعادت اليه شجرة الدر مقاليد الحكم ، وأعلن خبر وفاة أبيه الملك الصالح والمناداة بنفسه ملكا على مصر والشام . وبعد ذلك اليوم بأسبوعين ، حلت بالافرنج الكارثة فى معركة « المنصورة » فسحق جيشهم سحقا ، ووقع الملك لويس التاسع اسيرا فى أيدى المصريين ، وهلكت زهرة الصليبيين فى تلك المعركة الدموية ، غير أن الملك المعظم أساء التصرف مع زوجة أبيه ، ومع الأمراء الذين حافظوا على العرش فى غيبته ، فتآمر لفيف منهم على قتله ، ونفذوا قرارهم بقيادة بيبرس البندقدارى ، الذى كان أول من ضرب الملك بالسيف فقطع يده . وقد حاول تورانشاه الفرار فأدركه القتلة فى وسط النيل وأجهزوا عليه ، وألقيت جثته فى العراء ثلاثة أيام ولا يعرف أحد أين دفنت . وكان ذلك فى شهر المحرم سنة ٦٤٨ هـ ، الموافقة سنة ١٢٥٠ للميلاد ، بعد خمسة أسابيع من مبايعة تورانشاه بالملك .

وبموت الملك المعظم انقرضت اسرة الأيوبيين فى مصر . وتشاور الأمراء فيما بينهم ، ثم القوا بمقاليد الحكم الى شجرة الدر ، فكانت أول ملكة جلست على العرش وحدها فى تاريخ الاسلام !

وقالت مرجانة لرفيقتها السابقة فى الأسر :

ـ ها قد جلس رجل آخر على العرش بجانبك ، ثم اختفى وعدت الى الجلوس على العرش وحدك مرة ثانية · فتحققت مرحلتان أخريان من تكهن الكرك · فماذا أعددت للمنجمة من عطاء ؟

ـ ثوبين مزخرفين ، وقبقابا من خشب الصندل المموه بالذهب !

* * *

لم يقابل اعتلاء امرأة عرش مصر بالرضا والقبول من الناس ، فى مختلف انحاء العالم الاسلامى ، وأرسل الخليفة المستعصم بالله العباسى يقول : « ويل لبلد تحكمه امرأة ! اذا كانت مصر قد أقفرت من الرجال فأخبرونا لكى نوسل اليكم رجلا ! »

وأدركت شجرة الدر بثاقب نظرها ، وحسن تقديرها ، ان الأمور لن تستتب لها ما دامت محرومة من سند رجل يشاطرها السلطان ، ويأخذ مكانه بالقرب من مكانها على العرش ، فتزوجت الأمير عز الدين أيبك التركمانى ، فشاركها فى الحكم باسم « الملك المعز » وحاول ارضاء الفئة الباقية على ولائها للأسرة الأيوبية ، فجاء بالأمير الصغير « موسى » من سلالة الملك العادل ، ونصبه معه ملكا باسم الملك الأشرف ، ولكنه تخلص منه بعد وقت قصير فبعث اليه من قتله فى السجن ، وشتت شمل المماليك الصالحية أنصار الأيوبيين ، وصفا له ولشجرة الدر الجو ، فراح الزوجان يوطدان عرشهما فى الديار المصرية .

وقالت مرجانة لرفيقتها السابقة فى الأسر :

ـ ها قد أصبحت زوجة سعيدة ووجدت الرجل اللائق بك وبالعرش معا . فتحققت المرحلة الخامسة من تكهن الكرك . فماذا أعددت للمنجمة من عطاء ؟

ـ قرطين من الماس ، وقبقابا من خشب الصندل المموه بالذهب !

* * *

لم يدم الصفاء بين الزوج والزوجة ، فان شجرة الدر لم تكن المرأة التى تخضع لرجل ، وترضى بالحياة الخاملة فى خدرها ، ولم يكن الملك المعز بالرجل الذى يطاطىء الهام لامرأة ، ويستسلم لارادتها ويعمل بمشورتها ، وقد اسكره المجد وفتح أمامه آفاقا بعيدة ، فجعل يفكر فى مستقبل أسرته ومن يخلفه على العرش . ولم تكن شجرة الدر قد أنجبت فى حياتها غير ذلك الطفل الذى مات صغيرا ، وقد أشرفت على الخمسين من عمرها ، فى حين أن جارية من جوارى المعز قد أنجبت له ابنا سماه « نور الدين على » ، وأعده للملك من بعده ، فضلا عن انه انصرف الى التفكير فى الزواج من ابنة أمير من كبار الأمراء ، وبعث برسول الى « بدر الدين لؤلؤ » صاحب الموصل يطلب منه أن يزوجه ابنته ·

علمت شجرة الدر بكل هذا ، وشعرت بأن زوجها قد بدأ يتنكر

لها ، ونقل اليها جواسيسها أنه لن يتردد فى قتلها للتخلص منها ؛ فقررت اغتياله قبل أن يغتالها ، وكانت قد شركته فى العرش سبعة أعوام كلها متاعب وخلافات وخيانات ، فعهدت الى جماعة من غلمانها المخلصين بالقضاء على الزوج المزعج المتمرد ، ونفذ الغلمان الأمر فوثبوا على المعز وهو يتوضأ فى الحمام ، وقتلوه خنقا ، وكانت شجرة الدر واقفة تشجعهم بالوعود ، وقيل أنها ضربت رأس الملك بالقبقاب بعد أن تركه الغلمان على البلاط جثة هامدة . وكان ذلك فى سنة ٦٥٥ للهجرة، الموافقة لسنة ١٢٥٧ للميلاد .

وبقيت الملكة صاحبة العرش وحدها . وظنت أن المستقبل فى يدها .

وقالت مرجانة لرفيقتها السابقة فى الأسر :

ـ ها قد اختفى الرجل الثالث ، وأصبحت مرة أخرى ملكة لا يشاركك فى الملك أحد . فتحققت المرحلة السادسة من تكهن الكرك . فماذا أعددت للمنجمة من عطاء ؟

ـ خلخالا مرصعا بالياقوت ، وقبقابا من خشب الصندل المموه بالذهب !

❊ ❊ ❊

ثار ثائر المماليك المعزية لتلك الجريمة البشعة . فهاجموا القصر ، وفتكوا بالغلمان والخدم والعبيد الذين عرفوا فيهم الولاء لشجرة الدر، وأرغموا الملكة على البقاء فى أحد أبراج القلعة . وشاءت سخرية الزمن أن ينهض المماليك الصالحية ، أنصار الملك الصالح ، زوج شجرة الدر ، لانقاذها من الاسر . ولكنهم فشلوا فى محاولتهم . وكان المماليك المعزية قد نادوا بنور الدين على ، بن المعز ، ملكا باسم « الملك المنصور » فحرضتهم أمه ـ وكانت شجرة الدر قد حاولت من قبل أن تدس لها السم ـ على الانتقام للملك القتيل بالقضاء على الزوجة القاتلة . فاستمعوا لرجائها ، وصدعوا بأمرها . . .

ارادت شجرة الدر أن تقضى فى حياتها على كل من وقف فى سبيلها فلم تترك حولها أصدقاء تعتمد عليهم فى وقت الشدة . فقد أدركتها الغيرة من «العالمة » زوجة الملك الصالح فأقصتها عن زوجها ، وساهمت فى قتل توارنشاه ، واشتدت غيرتها من زوجة المعز لانها أنجبت له وارثا للعرش فأرادت أن تقتلها أيضا وتقتل وارث العرش معها . ولكن تلك المرأة التى حكمت مصر ثمانية عشر عاما ، وجمعت فى شخصها المتناقضات من صفات حسنة وعيوب فاضحة والتى بلغت من العز والسؤدد الأوج الأعلى ، وكان فى وسعها أن تظل سيدة مصر مدى عمرها تلك المرأة العجيبة فشلت فى محاولة التوفيق بين خشونة الرجولة ونعومة الانوثة ، فأخذت من الاثنين عيوبهما ، فدفعت بنفسها الى الهلاك !

بعد مقتل المعز بأيام ، جيء بشجرة الدر الى غريمتها أم نورالدين

الملك المنصور ، فامرت بقتلها ، واذا بـرب من الجـوارى يثبن عليها ويشبعنها ضربا بالقباقيب ، حتى أزهقت روحهـا على هـــذا النحو الفظيع ...

وكانت مرجانة في مقدمة الضاربات : تلك المنجمة التي شــاءت الاقدار أن تكون صادقة في تكهناتها . تلك الغريمة التي حالت شجرة الدر بينها وبين الملك الصالح ، كانت طوال تلك الاعوام تتجسس على شجرة الدر وتوقع بينها وبين الناس ، وقـد سنحت لها في النهــاية فرصة الانتقام فاقتنمتها !

وقالت مرجانة لرفيقتها السابقة في الاسر ، وهى تحتضر :

ــ ها قد تحققت المرحلة الاخيرة من تكهن الكرك ، وطفى بحر من الدماء الحمراء عليك وعلى من أحاط بك ياشجرة الدر ! فماذا أعددت الآن للمنجمة من عطاء ؟

لم ترد شجرة الدر في هذه المرة على ســؤال المنجمة . ولكنها ، وهى تلفظ أنفاسها الاخيرة ، وتلقى حولهــا نظرات الوداع ، وتشــعر بعظامهــا تتحطم من الضرب ، عرفت القباقيب المصــنوعة من خشب الصندل ، والمموهة بالذهب ، التى كانت مرجانة ورفيقاتها يهوين بها على راسها !

المجنونة

أحبها رجلان . وأحبت غيرهما .
وطار عقلها يوم جاءها الفرج ! ...



فارس من المماليك
(للرسام ماير)

الشيخ خالد النبكي فارس مغوار وقائد محنك ، يأتمر بأمره ثلاثة آلاف رجل بعدتهم الكاملة ، وهو يسيطر على أطراف البادية من بعلبك الى حمص ، ويضع نفوذه وشجاعة رجاله في خدمة من يدفع له الثمن الذى يطمع فيه • ولكنه يميل الى « المماليك البحرية » لأن احدى زوجاته من بناتهم ، ولان تلك الزوجة أحب نسائه اليه • وهى أم ابنتـــه الجميلة « وسـيمة » الفاتكة اللحظ ، القوية الساعدين ، التى طالما رافقت أباها الى ميادين القتال ، ونازلت الكماة الصناديد فى المعارك ، من صحراء تدمر الى جبال لبنان ، ثم الى سيناء وسواحل البحر الاحمر •

وأقسم خالد النبكي يمين الطاعة والولاء للملك الظـــاهر بيبرس البندقدارى صاحب مصر ، وكان له عونا على أعدائه فى جميع الحروب التى خاض هذا السلطان غمارها لاخضاع الامارات والمقاطعات العربيـــة فى الاراضي الســــورية • ووقع نظر بيبرس ذات يوم ، وهو يرد الزيارة لصديقه وحليفه خالد النبكي فى مضاربه فى سهل البقاع ، على مقربة من بعلبك ، على الحسناء الساحرة العينين الوضاحة الجبين • وكان السلطان قد سمع أخبارها من بعيد وأعجب ببطولتها فى الميادين ، فقال لصديقه :

ـ أى أخى خالد : ألا تخشى على ابنتك هذه وهى ســـافرة تختلط بالرجال كأنها منهم ؟ لو كنت مكانك لحبستها فى حريم، خوفا عليهـا من النفوس الأمارة بالسوء !•

فأجابه خالد :

ـ لا أخشى على وسيمة شيئا • فهى أخت الرجال فى الحرب والسلم، وهى قادرة على صيانة نفسها اذا ما أراد أحد بها شرا • أما سمعت بما حدث لها منذ شهور مع الملك القاهر الايوبى ؟

ـ كلا • ماذا حدث لها مع ذلك الامير المغرور ؟

ـ لقد التقى الملك القاهر بابنتى ذات يوم وهـــو قادم الى دمشق ، وكانت وسيمة قد خرجت للنزهة على ضفاف بردى ، فاعترضها ذلك الامير المغرور كما تسميه ووجه اليها الخطاب بلهجة آلمتها ، فاستلت الفتـــاة سيفها ووثبت على ذلك الوقح ، فتراجع واستل سيفه أيضا •••

ـ وهل كانا فى عزلة عن الناس ؟

ـ نعم • لم يكن أحد يراهما فى تلك الساعة ، فاشتبك السيفان،

وما هي الا لحظة حتى كان القاهر يطلق لجواده العنان هاربا والدم يسيل من كتفه ...

ـ بورك في ابنتك يا خالد !

ـ وفي استطاعتك يا مولاي أن تطلب منه أن يريك الجرح الذي أصيب به في تلك المبارزة الخلوية .

ـ كيف لم يبلغني خبرها قبل الآن ؟

ـ لا يدهشنك أن يخفى الملك القاهر خبر ما حل به . أما ابنتي فانها لا تتحدث عن نفسها ولا تذكر فعالها على مسامع أحد ، ولم يطلع على هذا الحادث غير والدها ... وأنت يا مولاي !.

ـ ان وسيمة لجديرة بأن تتبوأ المكانة اللائقة بها في قصرنا بمصر يا خالد !..

ـ ان ابنتي وأسرتها وجميع من يلوذ بها ملك لك يا مولاي !

***

تم الاتفاق بين الملك الظاهر بيبرس البندقداري وصديقه وحليفه الشيخ خالد النبكي على أن تدخل وسيمة حرم السلطان وتصبح زوجة له وعلى أن يتعهد لابيها بألا يطلقها مدى الحياة .

ولكن الفتاة قابلت ذلك القرار بالامتعاض . ثم ثارت وصاحت قائلة :

ـ ان الفتاة التي تمتشق الحسام وتنازل الفرسان وتقارع الابطال في الحروب والغزوات، يحق لها يا ابي أن تختار الرجل الذي تريده زوجا لها بنفسها وبملء ارادتها . وابنتك لا ترغب في حياة القصور وان كانت قصور الملوك والسلاطين. لقد نشأت في الصحراء وترعرعت في الفلاة ؛ أتسلق الجبال الشاهقة ، وأهبط الوهاد السحيقة ، وأمرح في السهول المترامية الاطراف حرة طليقة كالهواء الحر الطليق ! وأنت تريدني الآن زوجة ، بل أمة لرجل يحبسني وراء الاسوار وفي ظلمات الخدور ؟ ان هذا لن يكون !

فوجيء خالد بتلك الثورة التي لم يكن ينتظرها من ابنته وفلذة كبده . ولكنه أدرك خطأه ، وأقر للفتاة بأنه تسرع في القبول . ثم جعل يلاطفها ويبسط لها الاسباب التي يجب عليها من أجلها أن تضحي بنفسها في سبيل أسرتها وعشيرتها وبني قومها . ومما قاله لها :

ـ أي بنيتي الحبيبه العزيزة ، أعلم علم اليقين أنك لست كغيرك من ربات الخدور لانك قوية الارادة والعزيمة ، وانني لواثق بأنك سوف تسيطرين على زوجك وتملكين قياده . فاذا ما أصبحت يا وسيمة زوجة الملك الظاهر بيبرس البندقداري صاحب مصر وسيد هذه البلاد ، فان أسرتك سوف تبسط سلطانها أيضا على هؤلاء الامراء والزعماء الذين يحيطون بنا ويرهبون جانبنا .. ثم ان هناك أسبابا أخرى ...

فقاطعت الفتاة أباها صارخة فى وجهه :

ـ ولكنى أحب ابن عمى يا أبى ! أحب ابن عمى « سليمان » حبا عظيما ، حبا يجب أن ينتهى بالزواج ، وسليمان هو الزوج الذى أعلل النفس به وأريده لى رفيقا فى الحياة ... فى الحياة الحرة كما نريدها نحن أن تكون ، لا كما يريدها سكان القصور وأبناء المدن !

***

كان بيبرس البندقدارى يكره الملك القاهر الأيوبى ، وهو من سلالة الناصر داود بن المعظم عيسى . وكان الملك القاهر يتظاهر بالولاء لبيبرس ولدولة المماليك البحرية . ولكنه فى الحقيقة يمقت السلطان وعشيرته ويدس لهم فى السر ويكيد لهم فى الخفاء .

كان بيبرس يعلم ذلك ويتحين الفرص للايقاع بذلك الأمير الدساس الخطر . وحانت الفرصة للتخلص منه بعد أن ثبت له أن الملك القاهر يجمع حوله الأعوان والأنصار لاثارة الفتن ...

فأرسل فى طلبه على أن يوافيه فى دمشق ، قائلا له انه يرغب فى التداول معه فى شئون الدولة !

وكان الشيخ خالد فى اثناء ذلك قد تمكن من اقناع ابنته وسيمة بأن تتظاهر بالقبول ، وتطلب من الملك الظاهر بيبرس أن يؤجل عقد الزواج الى حين ، ريثما تضع الحروب أوزارها ويخيم السلام على سورية ومصر .

ووعد الشيخ ابنته بأنه سينتحل لها فيما بعد عذرا ينقذها من زواج لا ترغب فيه . ولكنه كان فى الواقع عازما على القائها بين يدى خليفة القوى الجبار ، واثقا أنها سوف ترضى بما قدر لها عندما تصبح سيدة نساء القصر الملكى بمصر !

وكانت الفتاة تقيم فى دمشق مع أمها المصرية ، فى دار قريبة من « القصر الأبلق » الذى كان ينزل فيه بيبرس عندما يحل بأرض الشام

وهناك ، فى تلك الدار ، كانت الفتاة تلتقى بابن عمها سليمان ..

***

وفى سنة ٦٧٦ هجرية الموافقة لسنة ١٢٧٨ للميلاد ظهر فى الفضاء نجم مخيف يحيط به شعاع باهر ويتطاير منه شرر عجيب . ثم خسف القمر خسوفا تاما فتكهن المنجمون بأن رجلا جليل القدر عظيم الشأن سوف يموت فى ذلك الشهر ـ شهر المحرم من تلك السنة !

وتساءل الناس قائلين :

ـ أيكون ذلك اشارة الى موت الملك الظاهر بيبرس البندقدارى . أم ان هناك رجلا آخر سيحل به القضاء ؟

وهلع الملك الظاهر من ذلك التكهن المخيف ، وعزم على السعى الى تحقيقه فى رجل سواه !.

وكان قد دعا الملك القاهر لموافاته في دمشق ، فعول على قتله في الحال لكي يتحقق فيه ذلك التكهن ، كما عول على الرحيل الى مصر في أقرب وقت بعد أن ينظم شئون البلاد التي أخضعها بمعونة حلفائه من أبنائها .

ولكنه أراد أن تسبقه زوجته المقبلة وسيمة ابنة خالد النبكي الى مصر حيث تستعد مع نساء القصر لليوم العظيم .

وأصدر أوامره باعداد هودج فاخر يحمل الفتاة الى مصر مع جواريها وعبيدها وتحرسه في الطريق كوكبة من الفرسان

ووقع هـــذا القرار على وسيمة وسليمان وقع الصاعقة ، وقطعت الفتاة كل امل في النجاة . ولكنها قالت لابن عمها وهي تودعه قبل رحيلها بيوم واحد :

ـ ثق يا ابن العم انني لن أكون لسواك .

***

وصل الملك القاهر الايوبي الى دمشق فاستقبله الملك الظاهر بيبرس بالترحيب ، وأنزله ضيفا عليه في القصر الابلق بجوار الميدان الاخضر ، وأمر غلمانه بأن يعدوا له ولضيفه طعام العشاء في قاعة منعزلة ، وأن يمنعوا الناس عنهما في تلك الليلة .

وعهد السلطان الى بعض رجاله في حراسة الابواب طول الليل . وكان سليمان ابن عم وسيمة أحد أولئك الحراس .

ودخل الملك الظاهر بيبرس الى القاعة .

ودخل على أثره الملك القاهر .

وجعل الغلمان يروحون ويجيئون حاملين الوان الطعام والشراب من كل ما لذ وطاب .

وفجأة ، طرقت الآذان أصوات استغاثة :

ـ الى ! ... الى ! ... السم ! ... السم ! ...

ودخـــل الحراس مهرولين الى القاعة ، فاذا بهم أمام الملك القاهر وقد سقط على الارض وجعل يتقلب كأنه أصيب بمس من الجنون !

وأشـــار اليهم الملك الظاهر اشارة عقدت ألسنتهم عن النطق ، فادركوا أن مولاهم دس السم لضيفه في الشراب !

وبينما هم يحملون الملك القاهر الايوبي وقد أصبح جثة هامدة ، تناول الملك الظاهر بيبرس قدحه وتجرعه دفعة واحدة !

وما كاد الحراس يخرجون بجثة الضيف حتى طرقت آذانهم صيحات المضيف :

ـ الى ! .. الى ! .. السم ! .. السم !

فألقوا بالجثة على الارض وعادوا مسرعين الى القاعة ، واذا بهم أمام بيبرس يتلوى من الألم ويصيح :

ـ السم ! السم !

ثم تمتم قائلا :

ـ لقد أخطأت • فشربت من الكأس المسمومة التي سقيت عدوى بها الخمر !

***

كانت وسيمة بنت خالد البكى متكئة على وسادة تمسح الدموع المتساقطة من عينيها ، وهى تفكر فى حبيبها الذى قضى عليها أن تفارقه الى الابد ، واذا بصوت ذلك الحبيب يرن فى أذنيها :

ـ وسيمة ! وسيمة !

ـ سليمان ! ما جاء بك الآن الى هنا وعهدى بك فى القصر الابلق؟

ـ وسيمة ! لن تسافرى الى مصر !

ـ ماذا تقول ؟

ـ ولن تصبحى زوجة للملك الظاهر !

ـ لا أفهم !

ـ لقد مات بيبرس !

ـ مات ؟

ـ مات مسموما • شرب من الكأس التى وضع فيها السم للملك القاهر فمات فى أثره !

ـ وأصبحت أنا •••

ـ وأصبحت أنت حرة يا وسيمة !

ـ حرة ؟ حرة !

رددت الفتاة تلك الكلمةالعذبة : « حرة ! حرة ! » ثم خفت صوتها، وجمدت عيناها ، وتصلب جسمها ، وعلا جبينها الاصفرار ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة بلهاء •

ورنت فى أرجاء الغرفة ضحكة عالية متواصلة ، ضحكة ارتعدت لها فرائص سليمان . ضحكة لا تصدر عن شخص مالك لقواه العقلية. فقد كان ذلك الخبر الفجائى الذى حمله سليمان الى حبيبته شديد الوقع عليها ، فلم تقو المسكينة على احتماله !

تمايلت يمينا ويسارا ، ثم هوت • فتلقاها ابن عمها بين ذراعيه . ونادى الخدم وعلت الضوضاء فى قاعات الدار •••

وعندما صحت من اغمائها صارت فاقدة العقل !

***

مات الملك القاهر الذى حاول الاعتداء عليها مسموما !•

ومات الملك الظاهر الذى رغب فيها مسموما ايضا .

وبقيت وسيمة بنت خالد البكى مجنونة !•

كل ذلك فى ليلة واحدة !



مشاعل الفردوس

الحب قريب من الكره . والكره

والحب يوحيـــــان بالانتقـــــام !



العريس بير محمد
حفيد تيمورلنك
وعروسه زهرة
خاتون يوم الزفاف
بين «مشاعل الفردوس»

خرجت جحافل التتر من مكامنها فوجا بعد فوج وتدفقت على الأقطار الآسيوية حتى غمرت الدول المجاورة وجرفت عروشها عرشا بعد عرش ٠٠ وكان يقود تلك الجحافل في زحفها الرهيب رجل أعرج ، ربع القامة ، نحيف الجسم ، ضخم الرأس ، واسع الجبين ، أبيض البشرة ، أحمر الوجنتين ، عريض الكتفين ، متين العضلات ، شجاع لا يهاب الموت : يعرف كيف يصدر أوامره ويجعلها مرعية التنفيذ : ذلك هو القائد التترى « تيمور لنك » الذي أعد جيشه لفتح العالم ، وتوحيد الممالك المعروفة وغير المعروفة ، في دولة واحدة يتبوأ عرشها ، ويخلفها لابنائه

من ذلك الفاتح ومن أين جاء ؟

ولد بالقرب من سمرقند ، في سنة ٧٣٦ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٣٣٦ للميلاد ٠ وهو ابن زعيم من زعماء القبائل التترية ، يدعى طرقاي يمت بالقرابة الى أسرة جنكيز خان المغولية ، التي أنشأت امبراطورية المغول الاولى ، فجاء تيمور لنك بعدها بأكثر من مائة سنة لينشيء الدولة الثانية التي عرفت بدولة التتر أو التتار . فالمغول والتتر أبناء عمومة.

وقد جمع تيمور لنك بين الرقة والقسوة ، واللطف والعنف ، والميل الى التخريب والرغبة في التعمير ، فكان كتلة من الخصال والعيوب المتناقضة المتباينة ٠

قضى معظم حياته في الحروب !

وفي سنة ١٤٠٠ للميلاد ، الموافقة لسنة ٨٠٣ للهجرة ، كان « تيمور » الاعرج قد أخضع آسيا الوسطى بأسرها ، ودوخ منافسيه في خراسان وايران وتركستان وأذربيجان وغيرها من الممالك الاسلامية والمسيحية ، وقضى على البقية الباقية من أسرة « جنكيز خان » الذي سبقه وحمل قبله لقب « ملك الملوك »

ووقعت عيناه على الحسناء « زهرة خاتون » ابنة أمير من سلالة تلك الاسرة في بلاد فارس ، فقرر ارسالها الى سمرقند زوجة لحفيده « بير محمد »

وسافرت الاميرة المغولية في موكب رائع ، مزودة بالمال والهدايا ، واصطحبت معها فريقا من الوصيفات والخادمات ؛ بينهن فتاة عربية من الديلم ، تدعى « فاتحة » وهي ابنة شيخ من شيوخ البادية ، كان يقيم في بغداد ثم رحل عنها على أثر خلاف بينه وبين حكامها ولجأ الى فارس حيث

ضافه المغول وأمنوه على حياته ، فلما مات بقيت ابنته في خدمة « زهرة خاتون » فكانت تقاسي مر العذاب في كنف تلك الاميرة المغولية المتعجرفة، التي زادتها هزيمة أهلها في الحروب حنقا على الناس ، فراحت تنتقم من حاشيتها عما أصاب أسرتها من كوارث وويلات !

لم تفرح الفتاة العربية عندما كاشفتها سيدتها بعزمها على اصطحابها معها الى سمرقند · ولكنها اضطرت الى قبول السفر مرغمة · وقالت في نفسها : « قد يكون الرحيل خيرا من البقاء · وقد أجد في سمرقند مخرجا من الحالة التي أنا فيها هنا ! »

ورحلت « فاتحة » مع الركب الذي رافق «زهرة خاتون» الى عاصمة الدولة التترية ، حيث كان « بير محمد » حفيد تيمور الاعرج يرقب قدوم الزوجة التي وعده بها جده ·

***

أرسل تيمور لنك عروسا لحفيده · وواصل زحفه شمالا وجنوبا وغربا · فأحرق مدينة بغداد · واجتاح سورية·وهزم جيشا من المماليك حاول أن يصده عنها بالقرب من حلب · ودخل دمشق فاتحا فأشاع فيها الخراب · واعترضه السلطان العثماني بايزيد فنازله تيمور لنك في سهل أنقرة ، في سنة ١٤٠٢ ميلادية ، الموافقة لسنة ٨٠٥ للهجرة ، وتغلب عليه ، وشتت شمل جيشه ، وساقه أسيرا ذليلا في قفص من حديد ، ومات السلطان من الحزن !

وقفل تيمور لنك راجعا الى سمرقند ، بعد أن عدل عن مواصلة الزحف على مصر ، لاسباب لا تزال غامضة ·

في ذلك الوقت بالذات ، كان العباسيون في طور الانحطاط ببغداد· والمماليك البرجية يحكمون مصر ، وممالك الاندلس العربية تسير نحو نهايتها ، والعثمانيون يضيقون الخناق على القسطنطينية عاصمة الدولة الرومية الشرقية ·

***

بالرغم من مرور أكثر من سنة على وصول الاميرة المغولية الى العاصمة سمرقند ، فان حفيد الفاتح العظيم لم يكن بعد قد عقد زواجه عليها ،بل انتظر عودة جده ، ليكون العيد مزدوجا ، فتفرح البلاد بقدوم عاهلها وبزواج حفيده في آن واحد ·

وحلت « زهرة خاتون » في قصر أعده لها خطيبها في احدى ضواحي المدينة ، وفي وسط حدائق غناء ، فيها من كل زهر وكل فاكهة · وحلت معها في ذلك القصر وصيفاتها وخادماتها اللواتي جئن معها من فارس· ولكن ما مرت أسابيع على اقامتهن جميعا في سمرقند ، حتى خيل الى « فاتحة » العربية أن سيدتها تنظر اليها شزرا ، وأنها لم تعد تكاشفها بمكنونات صدرها ، أو تأتمنها على خبر ·

ولم تكن الفتاة مخطئة في ظنها · فقد فطنت الاميرة المغولية الى ان

وصيفتها قد لقيت حظوة في عيني خطيبها الشاب ، وأنه يبالغ في ملاطفتها ويخصها بالعطف والهدايا دون سواها من نساء القصر !

وكانت «زهرة خاتون» تعلم انه ليس بوسعها ارغام زوجها المقبل على الاكتفاء بها زوجه وخليلة ومحظية ، وان قصره سيكون عامرا بالنساء من كل جنس ولون : مثل قصر أبيه · ولكنها كانت تأمل أن تكون الوحيدة المسيطرة على قلبه بين ساكنات القصر ، بالنظر الى نبل محتدها ، والى انها أميرة وابنة أمير وحفيدة ملك · فهل تكون تلك الفتاة العربية السمراء مزاحمة لها في ذلك السلطان الذي تتوق اليه ·

حقدت المغولية على العربية لهذه الاسباب كلها ، وعولت على وقف غريمتها عند حدها . ولكنها لم تجرؤ على مصارحه خطيبها بشيء ، ولا على تأنيب « فاتحة » ، لان في هذا التأنيب رفعا لشأن العربية الخاملة ، فاكتفت بتشديد الرقابة على الشاب والفتاة ، لكي تتوافر لها الأدلة والبراهين ، فتضرب في النهاية ضربة تريح بها نفسها من كل مزاحمة ، وتبدد بها المخاوف التي تساورها وتنغص عليها الحياة ···

وتوافرت تلك الأدلة والبراهين · فقد رأت « زهرة خاتون » بعينيها ، وسمعت بأذنيها ، ولمست بيديها ، ما أثبت لها أن الامير التترى لا يحمل لها في صدره أكثر من الاحترام لانها من أسرة « جنكيز خان » ولا ينوى اتخاذها زوجة له الا نزولا على ارادة جده ، ورغبة منه في مزج دمه الملكى بدمها الملكى ، أما قلبه فانه عازم على أن يهبه الى الفتاة العربية ، بل انه قد وهب لها ذلك القلب وخصها بحبه قبل ان يتم الزواج وتقام الافراح !

اذن ، ستكون « زهرة خاتون » الملكة الجالسة على عرش الملك ، أما « فاتحة » فستكون الملكة المتربعة على عرش الحب · و «زهرة خاتون» تريد الاستئثار بالعرشين ، وتريد زوجها لها وحدها ··· وما دام الامر كذلك ، فلابد من ازاحة الغريمة من الطريق !

***

ألقى « تيمور لنك » عن منكبيه أعباء الملك ، ودعا الشعوب الخاضعة له الى التنعم بالمسرات والملاذ مدة شهرين كاملين · وطاف المنادون في المدن والقرى والحقول ، وفي شوارع سمرقند وميادينها وأزقتها ، يتلون على الناس نص الامر الملكى السامى :

« الدنيا كلها في فرح ومرح ، لمناسبة الاحتفال بزواج بير محمد ، حفيدنا المحبوب . فلينبذ الناس ضغائنهم وأحقادهم ، ولينسوا ما بينهم من خلاف وعداء . فكل خصومة محرمة لمدة شهرين . وليس لغنى في خلال هذه المدة أن يطالب بحقه من الفقير . ولا لقوى ان يلجأ الى القوة تجاه الضعيف · ولا لأحد الناس أن يطالب أحدا بشيء أيا كان نوعه · فكلوا واشربوا واضحكوا وارقصوا وتنعموا . ولا تفكروا في النفقات فكلها من خزينة الملك ! »

وأقيمت حفلة العرس الكبرى في قصر شيده «تيمورلنك» في وسط

المدينة ، حجارته كلها من المرمر ، وداخله مزين بالفسيفساء ، وخارجه مغطى بالخزف الملون • وكانت المياه تغرد في أحواض مموهة بالذهب والفضة ، ومرصوفة بالجواهر ، وفي حجرات القصر وابهائه ودهاليزه وعلى سطوحه • وفي وسط الحدائق ، بين الاشجار الوارفة ، المثقلة بالاثمار ، صفت الموائد ورصت عليها أكداس مكدسة من كل ما يمكن أن تشتهيه النفس من طعام وشراب • ودعى الناس الى الجلوس الى تلك الموائد ليلا ونهارا بلا انقطاع • ونصبت حول القصر مئات من الخيام لايواء الضيوف الوافدين من كل فج وصوب • وكانت أطناب الخيام من الحرير المجدول حبالا ، وأوتادها من العاج ، وأعمدتها من النحاس والفضة •

وفي تلك الخيام حل ثلاثون ملكا وملكة ، وأميرا وأميرة ، ومئات من عظماء الدولة قواد جيوشها وحكام مقاطعاتها ، ونصبت مضارب خاصة للشعراء والمغنين . وللضاربين على الدفوف والنافخين بالمزامير ، وطافت في المدينة جماعات من سكان الجبال يلعبون بالسيوف ويعرضون على الانظار أغرب ماوقعت عليه العين من زواحف وحيوانات أليفة ووحوش ضارية • وغصت الاسواق بمختلف السلع والمنتجات المرسلة من مصر ولبنان وسورية وجزيرة العرب وبلاد المغول والترك والصين. وجردت خمس غابات كثيفة من أشجارها لتوفير الوقود في المطابخ • ووصلت الى سمرقند ، في نهاية الشهر الاول وفود من الغرب تحمل الهدايا من ملوك أوربا وأمرائها ، يتقدمها وفد ملك اسبانيا برياسة «غونزالس كلامنجو»، ووفد ملك فرنسا ، ووفد البندقية •• وطرد الظلام طردا مدة شهرين ، فقد علقت المصابيح في الاغصان ، وركزت المشاعل في الارض ، فكانت أنوارها تضيء المدينة من غروب الشمس في المساء حتى شروقها في الصباح !

ووقف « تيمورلنك » خطيبا في مدعويه في ختام الشهرين ، فقال لهم : « لقد حولت لكم عاصمتي الى فردوس أرضي•• والآن ستضرم النار في المشاعل التي أعددناها لليلة الختام ، وينطلق اللهيب من الخنادق التي حفرناها لهذا الغرض وملأناها بأثمن أنواع الخشب ، والاعشاب المعطرة ، والازهار المجففة ، وعيدان الند ، والبخور فودعوا الفردوس الليلة ، واحتاطوا من النيران ، وابتداء من الغد ، ليعد كل منكم الى بلده ويستأنف عمله ، لان تيمورلنك نفسه سيمتطي من جديد صهوة جواده، وينطلق الى الامام ، من ناحية الشرق ، لدك أسوار الصين واخضاع ملوكها • والقوا ، قبل اضرام النار في المشاعل ، نظرة أخيرة الى العريس والعروس ! »

وعند باب القصر ، في أعلى السلم ذي الدرجات الذهبية ، تجلى للجمهور المحتشد منظر لم تقع العين على مثله • فقد تقدم العريس « بير محمد » يرتدي ثوبا سداه من خيوط الذهب ولحمته من خيوط الفضة ، والى يساره إسد أليف على هامته تاج، مرصع بالجواهر، والى يمينه العروس « زهرة خاتون » ، مغطاة من الرأس الى أخمص القدمين بخمار رسمت عليه أنامل ساحرة صورة الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، كل منها بنوع من الحجارة الكريمة يختلف عن الآخر • ورفعت العروس الخمار

تسع مرات ، ووضعت غيره تسع مرات . وكانت فى كل مرة تلقى الخمار من يدها ، فتتلقفه أيدى الوصيفات ، فيلقين به الى الجمع المحتشد أمام القصر ، لكى يتقاسم الناس شموسه وأهلته ، وكواكبه ونجومه !

وأضرمت النـــار فى المشاعل ، فتصاعد اللهب من كل صـــوب ، واندفعت ألسنته الحمراء وسط سحاب كثيف من الدخان ، تشق طبقات الجو وتلعق كبد الفضاء !

وارتفعت فجأة . من احد أركان الحديقة . وعلى مقربة من ســلم القصر ، صيحات منكرة ، تنم عن رعب وهلع !.

وتدافع الناس نحو مصدر الصوت . لاستطلاع الخبر . ويا لهول ما رأوا !.

فى أحد الخنادق المشتعلة ، وهو أوسعها وأعمقها ، سقطت فتـاة من الوصيفات ، فالتهمها ذلك الأتون المتأجج ، قبل أن تتمكن رفيقاتهـا من انقاذها ...

وهل كان فى وسع أحد انقاذها ؟

تلك كانت نهاية « فاتحة » العربية . ابنة الشــيخ الديلمى ، فى سمرقند التترية ، ليلة الاحتفال بزفاف الامير الذى أحبها وأحبته ...

***

هل يئست الفتاة من الحياة فأقدمت على الانتحار بالقاء نفسها فى النار . أو أن غريمتها المغولية المتعجرفة « زهرة خاتون » قد نصبت لها شركا . ودفعت بوصيفاتها الى قتلها فى ذلك المهرجان . على تلك الصورة الفظيعة ؟

لقد حزن « بير محمد » عليها حزنا شديدا ، وراح يسأل ويحقق ويعد ويتوعد ، لعله يتمكن من تمزيق الستر عن غوامض ذلك الحادث . ولكنه فشل فى مساعيه ... غير ان رواية الانتحار لم تقنعه . وظل شبح الحبيبة العربية حاجزا بينه وبين زوجته المغولية .. واذا بسكان سمرقند ذات يوم يعلمون أن زوجة أميرهم المحبوب « زهرة خاتون » وجدت ميتة فى فراشها ...

وتهامس الناس فيما بينهم متسائلين : « هل ماتت الاميرة المغولية حتف أنفها ؟ أو أخمدت يد مجهولة أنفاسها ؟ انتقاما للفتاة العربيـــة فاتحة ؟ »

نسرين وتيمورلنك

هـل انتحـرت ، أو قتلتهـا يد مجهولة .. تلك الاميرة الشـقراء التى يغـزت بحبهـا قلب الفاتح الشرير ؟ ..



كان يباهي بأنه يمت بالنسب الى أسرة الفاتح المغولي جنكيز خان ، وانه من سلالة العذراء الاكوفا ، التي حملت بفعل النور واشعة الشمس المشرقة !

تيتم وهو صغير .. وجرده جيرانه من المال والسلطة ، ولكنه استعاد مكانته بسرعة . وبعد أن عرف الشقاء وعانى الفقر والذل ، ضحك له الحظ فانطلق من تركستان . في قلب آسيا . لغزو العالم الشرقي والغربي !

ذلك الحظ الضاحك ظل يلازمه حتى الايام الاخيرة من عمره ، وخيل اليه أنه قد استعبد الزمن كما استعبد الشعوب ، قوة وقسرا .. فدانت له هذه كما دانت له تلك ، واعتقد أنه لن يلاقي في الاعمال التي يقدم عليها غير النجاح والفلاح . فكانت هذه الثقة بالنفس أقوى عامل فيما أحرزه تيمور لنك ــ أو تيمور الاعرج ــ من انتصارات على اعدائه البعيدين ومنافسيه القريبين ...

حياته كلها سلسلة غير متقطعة من الحروب والغزوات والفتوح ، مصحوبة بفظائع لم يذكر التاريخ أبشع منها .

حالف جيرانا ليستعين بهم على جيران آخرين . ثم انقلب على حلفائه بالامس بعد أن نال منهم وطره . فالخيانة في عرفه كانت مثل المذابح جزءا متمما للسياسة الحكيمة !

بدأ بالسيطرة على بلاد تركستان . وتوغل في البقاع المحيطة ببحر قزوين . واستولى على خراسان وهراة وجبال القوقاز . واخذ ايران وتوغل في بلاد الافغان . وهاجم أطراف الامبراطورية العربية . واحتل العراق وخرب بغداد ، وانطلق الى سورية . ثم تحول الى أوروبا ، فمشى على ساحل بلاد القرم . وأرسل حفيده « محمد » الى بولونيا فدخلها ورفع اعلام التتر على ربوعها ! وعاد الى الشرق ، فهاجم السلطنة العثمانية وهزم عاهلها بايزيد ، وأخذه أسيرا في قفص من حديد . واجتاح الهند وهم بغزو الصين . فأدركه الاجل قبل أن يحقق هذا الحلم . ومات في سنة ١٤٠٥ للميلاد ، الموافقة لسنة ٨٠٨ للهجرة . ونقل جثمانه الى سمرقند عاصمة امبراطوريته فدفن فيها ..

استغرق ذلك كله نحو اربعين سنة ، قضاها تيمور الاعرج على متن جواده ، يضرب يمينا ويسارا ، ينتهي من حرب لكي يشعل نيران حرب

أخرى ، وينتقل من فتح الى فتح ، ويربط غزوا بغزو . ولما مات ، كان فى التاسعة والستين من العمر .

تزوج بضع نساء ، وأحاط نفسه بمحظيات لا عدد لهن ، ورزق أبناء كثيرون ، بعضهم معروف وبعضهم مجهول . فتقاتلوا على ملكه بعد موته ، وبددوا الارث الذى تركه لهم . . . وهذا مايحدث عادة بين أبناء كبار الفاتحين !

***

بين الحسان اللواتى عشن فى كنف تيمور لنك ، حليلات أو خليلات ، واحدة قيل انه أحبها ، وهو الذى كان يهزأ بالحب ويسخر من العشاق . .

وتلك الحسناء التى أحبها تيمور لنك لم تلازمه اكثر من بضعة أيام ، ولكنها أيام تركت فى حياة الفاتح المحظوظ أثرا عميقا ، وجعلت قلبه القاسى يخفق بأنبل واشرف وارق عاطفة تخفق بها قلوب البشر !

حدث ذلك فى مدينة الموصل بالعراق ، بين مرحلتين من مراحل حروبه ، أو بين معركتين من معاركه . فى عام ٧٩٤ للهجرة ، الموافق لعام ١٣٩٢ للميلاد ، بعداخذ بغدادوحرقها وذبح سكانها وبيع الاسرىوالسبايا في أسواق الرقيق !

كان تيمور لنك فى السادسة والخمسين . ولكنه لايزال يحتفظ بصفاء الذهن ، ومتانة الجسم ، وكامل الصحة والعافية .

فى هذه السن ، و فى تلك السنة ، حدث أن اتت المصادفات فى طريقه بفتاة تضاربت المصادر فى تحديد البلد الذى جاءت منه ، والظروف التى أوجدتها في مدينة الموصل حين دخلها تيمور لنك بجيشه ، وفعل مافعله ببغداد !

اسمها « نسرين » والاسم يتفق مع المسمى ، فالفتاة زهرة نضرة عطرة ، بلغت العشرين أو هى دونها . تنتمى الى أسرة مسيحية منبلاد الكرج المعروفة بجورجيا ، أو من جبال القوقاز ، أو من ارمينيا ، أو من النجد الذى يعتصم فيه الاكراد مع جماعات من النصارى الباقين على خلافاتهم المذهبية بعضهم مع بعض . . .

كانت بيضاء البشرة ، موردة الخدين ، زرقاء العينين ، شقراء الشعر ، فى بلد يطغى فيه اللون الاسمر . . . تجيد التحدث بالعربية والتركية والارمنية واللهجات المتفرعة من هذه اللغات .

كان أبواها من أسياد قومهما . قتلهما الجنود التتر ، ولم يبق من أهلها أحد ، ولم يعد لها سند ولا معين فساقها الغاصبون الى السوق لبيعها مع العشرات والمئات من العذارى الأسيرات .

هناك وقعت عليها أنظار تيمور لنك ، الذى كان يلذ له دائما ــ بعد كل انتصار وكل مذبحة ــ أن يطوف فى الشوارع والطرقات والميادين ، بين الخرائب المتراكمة والدخان المتصاعد من بقايا الحرائق ، ولا يفوته أن يمر

فى سوق الرقيق أو يأمر بأن تعرض عليه السلع البشرية ليختار منها مايروقه ، قبل أن يتصرف فيها قواده وجنوده ، وتتلقاها أيدى النخاسين . . .

هل رآها معروضة للبيع فى السوق أو جاءوا بها اليه مع من جاءوا بهن من السبايا ، الى المخيم المضروب فى ظاهر المدينة ؟

رآها فأعجبته . . بل انها فازت منه بأكثر من الاعجاب . . فازت بالتفاتة أسفرت عن عطف . وعطف تحول بسرعة الى حب . . .

رآها ، وقد أرخت شعرها الطويل على صدرها لتغطيه ، ورفعت اليه نظرات فيها مزيج من الخوف والتوسل والامل .

لحظة واحدة كانت كافية لكى يحرك منظر الفتاة فى صدر الطاغية كوامن المشاعر النبيلة الرقيقة ، التى لايخلو منها صدر انسان مهما يكن شريرا قاسى الفؤاد . . .

باشارة منه ، فهم حراسه أن سيدهم يريد الاسيرة الحسناء لنفسه . . . وفى مساء ذلك اليوم كانت نسرين فى خيمة تيمورلنك ، بهية الطلعة مزينة معطرة !

وحدث ما أثار الدهشة والتساؤل حول الرجل القوى والمرأة الضعيفة فقد مرت الايام بلياليها تباعا ، نهار بعد ليلة . وليلة بعد نهار . وتيمور لنك فى داخل خيمته لايخرج منها . يطلب الطعام والشراب له وللفتاة التى حبس نفسه معها فى مخدعه . . .

أصدر أوامره بألا يزعجه أحد الا اذا اقتضت ذلك مصالح الدولة الملحة ، أو طرأ على الجيش مايدعو اليه . ونفذ القواد ورجال الحاشية ارادة العاهل التى لاتناقش ، وانتشر اللغطبين النساء فى أخبيتهن المنصوبة حول خيمة تيمور لنك . . .

اذا كان تيمور لنك قد انقطع عن الناس ، وأمر بأن لايزعجه أحد من رجاله ، واختار لنفسه العزلة مع فتاة أعجبه جمالها . فما ذلك الا لأن الحب قد غزا قلب الرجل الذى غزا بجيوشه الشرق وطرق بها أبواب الغرب ! . . الحب الذى كان تيمور الاعرج يجعل منه مادة للهزء والسخرية تغلب فى النهاية عليه وقهره !

امرأة احتكرت تفكير الفاتح الذى يلعب بمصير العالم . . .

سيطر على الشعوب فسيطرت عليه فتاة يتيمة غريبة !

الفؤاد الصلب خفق بأشرف عاطفة : تيمور لنك أصبح مغرما !

واذا كان هذا مايدعو الى العجب . فالاعجب منه أن يخفق قلب امرأة بحب تيمور لنك ، الفظ الغليظ . القصير الاعرج . الذى يجمع فى شخصه كل ما يمكن أن يوجد من قبح فى رجل من البشر !

مضجع الفاتح الدموى تحول الى عش غرام !

ومرت ايام أخرى ...

وتزايد اللغط وتكاثرت الشائعات !

***

وفى ذات صباح ، حدث مالم يكن فى الحسبان : مفاجأة مثيرة أحيت فى صدر تيمور لنك غرائزه الشريرة ، وحولت الانسان العاقل الى حيوان بهيم ، والرجل المغرم الى وحش مفترس !

علت صيحات الملك فى داخل خيامه وهرع الرجال والنساء ملبين النداء . فاذا بهم يقفون جامدين أمام منظر رهيب بعث الرعب فى نفوسهم ...

تيمور لنك على سريره ، يحتضن جثة هامدة ويوالى الصياح كأن مسا من الجنون قد أصابه !

ماتت نسرين وهو يغمر وجهها بالقبلات .. كيف ماتت .. ولماذا ماتت ؟ .. وهل قتلها الرجل فى نوبة من نوبات هياجه الجنونى ؛ أو دست لها يد مجهولة السم فى الطعام ، انتقاما منها وعقابا لها ؟

السر ظل غامضا .. والستار انسدل على المأساة بدون أن يفهم المشاهدون أسباب الخاتمة المفجعة !

تحول صياح تيمورلنك الى زئير .

وانطلق صوته ، بين صيحة وأخرى ، يصدر الاوامر ويلح فى التنفيذ ...

وتساءل السامعون : هل فقد الملك صوابه .. ؟ وهل هذا الذى يقوله دليل جديد على أن تيمورلنك كما وصفه طبيب عربى معاصر له ، مزيج من العبقرية والجنون ؟

ـ اجمعوا النساء والفتيات .. المتزوجات منهن والعذارى ... الحرائر والجوارى .. الارامل وبنات الهوى .. وأجمعوا معهن المراهقين من الفتيان .. واذبحوهم ذبح الانعام ... وواروا جثثهم فى التراب حول المكان الذى تدفنون فيه نسرين الاميرة الحسناء التى احببتها وأحبتنى .. هذه ارادتى .. وغدا .. سوف نستأنف الزحف غربا ، لاخضاع البقية الباقية من العالم لاحكام التتر !

قال تيمورلنك هذا ، وبكى ..

بكى بعد ان قرر ذبح الابرياء .. وبكى من حوله أفراد أسرته ، ورجال حاشيته ...

هل بكوا متأثرين بحزنه ؟ أو بكوا خبثا ، أو رياء ، أو خوفا ؟

فى الموصل ، دفنت نسرين الاميرة المسيحية التى احبها تيمورلنك وأحبته ...

ودفن معها حب تيمورلنك الوحيد !

ولو بحث الباحثون ، ونقب المنقبون ، في المدينة العراقية ، عندالمكان الذى ضرب فيه التتر مضـاربهم فى ذلك الوقت ، فانهم قد يعثرون على بقايا الضحية الاولى ، نسرين ، وبقايا الضحايا الكثيرة الاخرى ، من نساء العراق وبناته ، اللاتي دفنهن جنود الطاغية تنفيذا لرغبته .

قد يعثرون على شيء من هذا وربما لايعثرون على شيء .. فقصة الاميرة نسرين والفاتح التترى ، قد تكون من الوقائع المهملة فى التاريخ وقد تكون من الاساطير ! ..

ولكن ، كم من الاساطير فى كتب التاريخ . وكم من وقائع التاريخ فى سجلات الاساطير !

وما أكثر الحوادث التي يختلط فيها التاريخ بالاسطورة ، فى حياة تيمورلنك ، الفاتح التترى الذى اجتاح رقعة من العالم العربى وعجز عن اقتحام الرقعة الاخرى ، فوصل الى وادى دجلة والفرات ، ووادى بردى . ورجع على أعقابه دون أن يصل الى وادى النيل . ثم أفل نجمه وغاب ..

وبقيت ذكراه يلعنها الناس كلهم اجمعون .

خنجر السلطان

ذبح السلطان حبيبته بيـده ، ثم
ذبح الرجـل الذى وشى بها لديه !
تلك كانت عدالة الطغاة !



السلطان محمد الفاتح

رسم يرجع الى القرن الخامس عشر

محفوظ فى متحف توبكابو سراى

ـ اياك أن تكون كاذبا يافيروز أغا !

ـ ان حياتي بين يديك يا مولاى ! . . . وهل أعطاك فيروز ياسيدى حتى الآن دليلا واحدا على انه غير صادق في كل ماتقله اليك ؟

ـ اذن سنلتقي عند الباب الصفر الذى أشرت اليه ، في الساعة التي حددتها .

ـ سأكون في انتظار مولاى ، في المكان وفي الموعد .

ـ ان كان ماتقوله صحيحا ، فسأذبح الخائنة بيدى ، وان كان ماتقوله كذبا ، فسأذبحك أنت !

وضع السلطان محمد الفاتح يده على خنجره الذهبي وهو يفوه بهذا التهديد ، موجها نظراته الحادة الى العبد الواقف أمامه في خشوع واشار اليه بالانصراف فانصرف .

وامسى السلطان قلقا مضطربا . فالخبر الذى أفضى به اليه عبده المفضل الامين ، من النوع الذى يحرك في النفس مشاعر الغضب والحقد في آن واحد .

ان الزمن يضحكلسلطان العثمانيين محمدالثانى ، ويلاطفه ويسايره ويمهد له السبل لتحقيق مطامعه وبلوغ اهدافه ، فهو لايتصور كيف يجرؤ شخص على مخالفة رغائبه ، وعصيان أوامره ، والخروج عن طاعته . . . خصوصا اذا كان ذلك الشخص امرأة !

لقد اجتاح بجيوشهالاقطار والامصار ، ودك الحصون وهدمالاسوار وفرض حكمه على الاقوام الذين شاء سوء طالعهم أن يوجدوا في طريقه ، وقهر أعداءه في بر الاناضول ، وسيطر علىمشارف البوسفور ودوخالروم حتى وصل الى عاصمتهم « القسطنطينية » أو « بيزنطة » فانتزعها منهم بعد حصار طويل ، وقتال مرير ، ودخلها دخول الفاتحين . وقد غاصت قوائم جواده في بحيرة من الدماء !

والآن تعصيه امرأة !

فمن هى ؟ وماذا فعلت ؟

انها غريبة عنه ، وقريبة منه في آن واحد !

ليست من قومه ، ولا من رعيته ، ولا من بلده ، ولا هى تدين بدينه، ولكنها تحبه . . . وهو أيضا يحبها !

وعدها بأن يجعل منها في مستقبل الايام ملكة ، ان أنجبت له ولدا فكيف تعصيه ؟

***

في التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ١٤٥٣ — الموافقة لسنة ٨٥٧ للهجرة — وثب محمد الثاني على أسوار القسطنطينية وثبته الاخيرة، القاضية ، وكان في الثالثة والعشرين من عمره ، وفي السنة الثانية لارتقائه العرش خلفا لابيه مراد الثاني .

وقد لقب بالفاتح بعد استيلائه على المدينة العظيمة التي دب فيها الخلاف بين المدافعين عنها ، فكان عاملا من عوامل سقوطها الكثيرة ، وذهب مثلا على الالسنة ، فسمي « الجدل البيزنطي » وهو يرمز الى قوم يتناقشون في توافه الامور ووطنهم يحدق به الاعداء .

وعجز امبراطور الروم قسطنطين الحادي عشر عن دفع الهجوم الهائل ، فصعد الى الاسوار وسقط في المعمعة والسيف في يده .

القى الروم السلاح في كل مكان ، ورحل من قوادهم وزعمائهم من رحل ، وبقي منهم كثيرون ، دانوا بالطاعة للسلطان المنصور ، ودخل بعضهم في خدمته ...

وأقام محمد الثاني في قصر أباطرة الروم ، وهو يضم بين أسواره في الواقع عشرات القصور ، تشرف على المضايق وينتهي منها البصر الى الهضاب البعيدة الخضراء .

وانصرف العاهل المحظوظ في الحال الى تنظيم ممتلكاته الجديدة .

***

وفي أجنحة القصور المخصصة للحريم ، كان عدد النساء يزداد يوما بعد يوم .

وكان أباطرة الروم يستخدمون الخصيان بكثرة ، فاحتفظ محمد الثاني بمن بقي منهم . وحدث ذات يوم أن اقتحمت حلقة الحراس في موكب السلطان ، فتاة بارعة الجمال ، طويلة القامة ، واسعة العينين ، وصاحت من بعيد تطلب الحماية والأمان فأمر محمد الثاني بأخذها الى القصر .

اسمها « ايرينا » وهي ابنة تيودوروس قائد الحامية في أحد أبراج بيزنطة ، ومدرب القناصة في جيش الروم ، وزوج امرأة ذاع صيتها في المدينة منذ جاءت اليها من حلب لتمارس الطب .

اسمها « أمينة » وهي عربية نصرانية ، عالجت تيودوروس من تسمم أوشك أن يودي بحياته ، فأحبها وتزوجها ، وكانت « ايرينا » الحسناء ثمرة ذلك الزواج .

سافرت أمينة لزيارة أهلها في حلب ، قبل أن تطوق الجيوش العثمانية عاصمة الروم ، وحال حصار المدينة وسقوطها دون عودة المرأة الى زوجها وابنتها ، فبقيت عند أهلها في سورية .

واختفى القائد تيودوروس فى اثناء القتال ، ولم يعد الى بيته ؛ ولم تعثر له ابنته على أثر بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وعاد الهدوء الى المدينة الدامية . وتعذر على الفتاة الخروج وقد أصبحت وحيدة فى هذا العالم ، فباتت تندب حظها ، وتنتظر الفرج من ربها !

ولكن حياتها تحولت الى حجيم يكتنفه القلق . وضاقت الدنيا فى وجهها . ففكرت فى الذهاب الى مقر الفاتح وطلب الحماية من السلطان نفسه !

وقوبل طلبها بالرضا . . .

بل ان السلطان اعجب بما أبدته من شجاعة واقدام ، وهى الفتاة الوحيدة الضعيفة . فأمر بأن يخصص لها مكان ممتاز . . .

***

وشاءت عجائب الليالى أن يتحول اعجاب السلطان بالفتاة الجميلة الى محبة ، فحب فهيام !

كانت النساء حول محمد الفاتح كثيرات . لكنه لم يكن بعدقد اختار منهن من يخلع عليها لقب « سلطانة » ويخصها بعطفه وحبه .

وشعرت « ايرينا » ، بعاطفة جامحة نحو ذلك العاهل الشاب . القوى البنية ؛ ذى الملامح الصادقة ، والعينين المتقدتين ، الذى كان الناس يرتجفون خوفا منه ، والذى بدا لها ، بعد أيام معدودة من دخولها فى حمايته كالحمل الوديع .

ودهش عظماء المملكة وقوادها ، ورجال الحاشية على الخصوص ، وأفراد الأسرة المالكة على الاخص ، عندما رأوا ذلك الشاب الذى القى المجد مقاليده بين يديه ، وانقاد له النصر طائعا ، يقع بمثل هذه السرعة العجيبة فى حب فتاة لم يرها غير مرات معدودات . وبالرغم من وجود الحسان حوله بالعشرات والمئات .

عهد محمد الثانى الى فريق من المقربين اليه بالبحث عن والد الفتاة أو معرفة المصير الذى حل به ، والوثوق من أنه حى مختبىء فى مكان مجهول ، أو ميت ضاعت جثته بين كومات الجثث التى خلفتها المعارك الطاحنة خلال الحصار .

وجاء الرد : لا يمكن العثور على أثر لتيودوروس مدرب القناصة . ولكن بعض الذين لازموه فى اثناء القتال يؤكدون انه مات فى سبيل وطنه ، والسيف بيده ، مثل الامبراطور الذى كان القائد قد وقف حياته لخدمته

وبكت ايرينا حظ أبيها . ولكنها لم تذرف دمعة على حظها هى ! فقد أحبت ، وحبيبها يبادلها الحب . والناس جميعا يحسدونها على النعمة التى ارادتها لها السماء ، يوم دفعتها الى اختراق صفوف الحراس والمثول بين يدى السلطان .

واراد محمد الثانى أن يكون الزواج شرعيا . وحدد يوما للاحتفال به !

كثيرون من عظماء الدولة كانوا يأملون أن يختار الفاتح الشاب زوجته من بين بناتهم ، فحاولوا افساد العلاقات بينه وبين حبيبته الرومية ولكنه لم يعرهم أذناً مصغية وظل باقيا على عزمه .

وفجأة ، حدث مالم يكن في الحسبان !

كانت الفتاة ذات مساء تتمشى في ممرات جناحها الخاص ، كعادتها كل مساء ، واذا بامرأة مبرقعة ، يلفها رداء حالك السواد ، تقترب منها مستأذنة بالتحدث اليها :

ـ لاتظهري دهشة ، ولا تبعثي من فمك صرخة ، ولا تنظري الى غيري ، حدقي في وجهي جيدا ...

وسكتت المرأة الغريبة لحظة خيل الى الفتاة انها دهر مديد !

ثم سمعت ايرينا هذا الهمس يداعب اذنيها :

ـ انا ابوك !

وفي ركن من اركان الشرفة التي خرجت اليها الفتاة ولحقتها المرأة ، تيقنت ايرينا ما سمعته : ان أباها تيودوروس هو الذي يحدثها في هذه الخلوة ... وقد جاء اليها متنكرا في زي امرأة ، معرضا بذلك نفسه للموت في اية لحظة !

لم يقتل القائد في خلال المعركة وقد جاء الآن يدعو ابنته ، وقد عرف ماحدث لها ، لكي تهرب معه ، أو تعده بالهرب وحدها ، واللحاق به في مكان معين ليرحلا معا الى بعيد !

وجدت الفتاة نفسها بين نارين : بين الوفاء للحبيب الذي خصها بعطفه دون جميع النساء ، والذي أحبته بكل جوارحها ، وبين الوفاء للأب الذي جاء يطلب منها أن تترك القصر وزخارفه ، والعرش وابهته ، واللقب واغراءه ، وتهجر الرجل الذي هزم قومها واذلهم وهدم ملكهم .. وتذهب مع أبيها .

فكرت الفتاة في أمرها ، ولم تتردد طويلا ... لقد آثرت الذهاب مع الأب ، على البقاء مع الحبيب !

وضربت ايرينا لأبيها موعدا للقاء ، في يوم معين ، على ضفاف البوسفور ، تحت شجرة يعرفها هو ، وتعرفها هي ، كانت أمها تستعمل أوراقها في تحضير الادوية والعقاقير .

***

أفضت الفتاة بسرها الى وصيفة رومية مثلها ، كانت قد اصطفتها من بين الوصيفات ، واتفقت معها على أن تكون رفيقتها في هربها ليلا من القصر ، ووافقت الوصيفة . ولكنها أفضت بدورها بالسر الرهيب الى عبد من عبيد القصر ، كانت تستخدمه لقضاء أغراضها ، وتغدق عليه المال والهدايا .

وقديما عرف الناس وجربوا أن السر اذا ما تعدى شخصين لايبقى سرا ، وهذا هو ماحدث للفتاة الرومية حبيبة السلطان محمد الثاني .

رأى فيروز اغا ، العبد اللئيم ، ان الفرصة سانحة للفوز برضا مولاه السلطان ، وهو الذي عهد اليه الفاتح منذ أن استقر في قصور الأباطرة الروم ، باستطلاع الاخبار ، ومراقبة الرجال والنساء ، ونقل مايعرفه من أسرارهم اليه ، وأي سر جدير بالذكر والاهتمام أكثر من هذا السر ، الذي ساقته المصادفات الى الاطلاع عليه ، من فم المراة التى وضعت فيه ثقتها ؟

وبرر الرجل خيانته ، بينه وبين نفسه ، بأن الفتاة هي التي تتأهب لخيانة السلطان ، فلا حرج عليه هو ، العبد المأمور ، فى أن يخونها بدوره.

وحدث ماحدث . . .

ـ ان كان ما تقوله صحيحا ، فسأذبح الخائنة بيدى ، وان كان كذبا ، فسأذبحك أنت !

وفى الساعة المحددة للهرب ، كان محمد الفاتح وعبده فيروز اغا يرقبان الباب الصغير ، من مكان لايراهما فيه أحد .

فتح الباب بحذر ، وخرجت الوصيفة ، وتبعتها ايرينا .

لم يكذب فيروز اذن .

ووثب السلطان وخنجره بيده . وجذب الفتاة من شعرها ، وبدون أن يفوه بكلمة ، طرحها ارضا ، وعقد الخوف لسان المسكينة ، وذعرت من هول المفاجأة ، فاستسلمت استسلام الشاة للجزار .

وذبح السلطان حبيبته بيده ، ففصل رأسها عن الجسد !

وسقطت الوصيفة مغشيا عليها . فتناول السلطان خنجره الى العبد الواشى ، وأشار الى المراة فاقترب فيروز وذبحها على عتبة الباب . ثم التفت الى سيده ، فاذا بالسلطان قد جمد فى مكانه ، وشفتاه ترتجفان وعيناه تقدحان شررا .

مد محمد الفاتح يده الى العبد فأعاد اليه فيروز خنجره المخضب بدم الضحيتين . وانبعثت هذه الكلمات الرهيبة من صدر السلطان :

ـ كنت صادقا يافيروز ، ولكن ياليتك كنت كاذبا !

وبجانب الجثتين الغارقتين بالدم ، تدحرجت جثة ثالثة . . جثة فيروز الواشى الصادق ، الذى ذبحه سيده كما ذبح حبيبته .

وظل السلطان واقفا لحظة أمام الجثث الثلاث ، ولما طفرت من عينيه دمعة حارة ، مسحها بطرف الرداء الذى مسح به خنجره ، وهرول عائدا الى داخل قصره !

اما تيودوروس أبو الفتاة المذبوحة ، فقد هرب من القسطنطينية وبلغ مدينة حلب حيث كانت أمينة ترقب الاخبار .

وفي حلب ، تمكن الزوجان من الهرب أيضا الى مصر ، حيث مارست أمينة السورية الطب ، ودخل القائد تيودوروس فى خدمة الملك الاشرف اينال ، أحد سلاطين المماليك البرجية .

الملكة صفية

« اذا أراد الله خراب مملكته سلط
على ملوكها النساء ! »



(بافو) أو (صفية) أمام السلطان مراد الثالث العثماني

في حي من أحياء القاهرة القديمة ، كان يعرف من قبل بالداودية ، جامع أثرى يدعى جامع « الملكة صفية » يرجع تاريخه الى القرن السادس عشر للميلاد ، ويعد منبره المرمرى من أبدع المنابر فى مساجد القاهرة ٠

ولهذا الجامع قصة ٠٠٠

وللمرأة التي أطلقت عليه اسمها قصة ٠٠٠

فمن الملكة صفية ، أو السلطانة التي عرف الجامع باسمها ، وحاولت بذلك أن تخدع الأجيال الآتية بعدها ، وتحملها على الاعتقاد بأنها شيدت ذلك المسجد ٠ وهى لم تشيده قط بل ألصقت به اسمها زورا وعدوانا ؟

هى امرأة من نساء البندقية اختلفت فيها آراء المؤرخين : فمن قائل ان « مجلس العشرة » فى تلك الجمهورية الايطاليــــة أرسلها هدية الى السلطان مراد الثالث العثمانى فأحبها وتزوجها ٠

ومن قائل انها من أسرة « بافو » الشريفة.كان أبوها حاكما لجزيرة كورفو ، فوقعت ذات يوم فى قبضة القراصنة الاتراك وهى ذاهبة فى مركب صغير من البندقية الى جزيرة أبيها ، فباعها أولئك القراصنة فى سوق الرقيق ٠ وكانت من نصيب السلطان فأدخلها حرمه وأنزلها فيه منزلة رفيعة ٠

والرأى الأخير هو المرجح لأنه لم يكن من عادة البنادقة أن يهدوا نساءهم الى الناس !

وسواء أكانت المرأة حـــرة نبيلة خطفها القراصنة ، أم من أصل وضيع أهداها سادتها الى السلطان ، فان الحقيقة التي لا شك فيها هى أن تلك الغادة الحسناء ، التى لعبت فى تركيا دورا خطيرا ، كانت من بنات البندقية ومن أبرع نساء عصرها جمالا وابعدهن ذكاء وأمهرهن فى الدس والمكر والخداع ٠

كان السلطان سليمان القانونى يردد دائما القول الحكيم : « اذا أراد الله خراب مملكة سلط على ملوكها النساء ! » ٠ لكنه لم يتعظ بهذه الكلمات البليغة ولم يعمل بها فكان فى حياته ألعوبة بيد زوجته «روشان» الافرنجية ، ومعنى اسمها « نور » بالتركية ، وهى التى يسميها المؤرخون الغربيون « روكسلانة » ٠

وردد هذه الكلمات من بعده حفيده مراد الثالث بن السلطان سليم الثاني ، ثم وقع في الخطأ الذي وقع فيه جده ، بل تمادى في ذلك الخطأ أكثر منه فاستسلم للنساء استسلام من ضرب العمى على بصره وبصيرته ، فكان أيضا في حياته العوبة بأيدي زوجاته وحظاياه الكثيرات ، وخاصة تلك التي كان يحبها أكثر من غيرها ، والتي عرفت في التاريخ باســم الملكة صفية أو السلطانة صفية والتي جاءته من البندقية !

كان للنساء شأن عظيم في قصـــور السلاطين منذ عهد سليمان القـــانوني وابنه سليم الثاني • وعندما جلس مراد الثالث على عرش آل عثمان وجد نفسه تحت رحمة أمه اليهودية « نورينو » وأخته الجميلة « أسما سلطان » زوجة أحد قواد المملكة العظام •

واشتد نفوذ المرأتين في عهد السلطان سليم الثاني لأن الرجل كان يقضي أيامه بلياليها بعيدا عن ادارة شئون الرعية ، تاركا الحبل على الغارب لزوجته نورينو وابنته أسما • وقد عرف ذلك السلطان فيالتاريخ باسم « سليم السكير » •

ولم يستطع ابنه مراد عندما خلفه على العرش في سنة ٩٨٢ هجرية الموافقة سنة ١٥٧٤ للميلاد ان يتخلص سريعا من نفوذ أمه وأخته •

ثم قذفت اليه الاقدار بتلك الفتاة الغريبة الحسناء ، ابنة البندقية الساحرة ، ذات العينين السوداوين والجسم الغض الناصع البياض ، فهام بها مراد هياما شديدا يقرب من الجنون ، وصارت أعز أمنية لديه أن يجيب لتلك المرأة رغباتها • وعرفت الحسناء كيف تستغل ذلك الحب الذي اضرمت نيرانه في قلب السلطان . فجعلت تدس الدسائس في الخفاء لخدمة وطنها البندقية ، والانتقام من اعدائها ومزاحميها لدى السلطان الخاضع لسلطانها !

لقد دون مراد في سجل التاريخ أعمالا شريفة بجانب أعمال مخزية . وبلغ في حياته ذروة المجد كما أنه انحدر الى أحط دركات النذالة • واذا كان مدينا بمجده واعماله الشريفة لنفسه العالية وذكائه النادر ومداركه الواسعة ، فان تلك المرأة الشيطانية ، التي سلمها نفسه وانقاد لها انقيادا أعمى كانت مبعث نذالته ومصدر أعماله المخزية !

كان مراد الثالث مزواجا فبلغ عدد زوجاته أربعين . وكان يميل الى النساء فبلغ عدد السراري والجواري في قصره خمسمائة أو أكثر • وقد رزق مائة وثلاثة من البنين والبنات أثبت أسماء عشرين منهم — وكانوا أحبهم اليه — في سجل الامراء أبناء السلاطين •

ذلك هو « الحريم » العرمرم الذي دخلته « صفية » عندما وصلتالى قصر السلطان قادمة من البندقية • وذلك هو الجيش العظيم الذي لا يحصى له عدد اذا اضيف اليه الخصيان والخدم والعبيد، والذي تمكنت تلكالمرأة الجهنمية من التسلط عليه والوصول الى أرفع المراتب فيه •

لم تنظر أم السلطان « نورينو » وأخته الى القادمة الجديدة وحظوتها

عند مراد بعين الرضا والارتياح والقبول · وخشيت المرأتان مزاحمة تلك الغريبة الساحرة فجعلتا تكيدان لها في الخفاء لتشـــويه سمعتها وحمل السلطان على هجرها · ولكنه كان يهمل صفية أياما ثم يعود اليها ونيران المحبة تتاجج في صدره من جديد ·

دفعت اليه أمه أجمل الغربيات ، وقادت اليه أخته أجمل الشرقيات ، فكان ينظر اليهن نظرة عطف لا تدوم أكثر من يوم وليلة ، ثم يعود الى تلك التي فتكت به سهام لحاظها ، وينسى بقربها ما عداها من النساء ·

وخرج مرة الى الحرب ثم عاد الى عاصمة ملكه ، فاذا به يجـد في القصر الحسناء « رضية » التي تكهنت له بالمستقبل الباهر الذي ينتظره ، لما كان في العاشرة من العمر . فقضى معها أسبوعا تذكر في نهايته حبيبته « صفية » فترك قارئة الغيب وعاد الى ابنة البندقية ·

وخرج مرة أخرى الى الحرب ثم عاد الى عاصمة ملكه ، فاذا به يجد في القصر فتاة هنغارية كالبدر في تمامه ، فقضى معها أسبوعا تذكر في نهايته حبيبته صفية فترك الهنغارية وعاد الى البندقية ·

وفطنت صفية ذات يوم الى أن احدى زوجات السلطان اليونانيات قد نالت حظوة في عينيه ، فرأت فيها غريمة خطرة ، وأعلنت عليها حربا لم تتورع في اختيار أسلحتها وأساليبها · فتمكنت في النهاية من حمل السلطان على قتلها بوساطة خصيانه والقاء جثتها في البوسفور طعاما للاسماك ·

وتحالفت عليها من أجل ذلك نساء القصر اليونانيات ، وانضمت اليهن بعض التركيـــات الناقمات على صفية · لكن السلطان « مراد » الثالث أصغى الى رغبة زوجته المحبوبة وألحق أولئـك النســـوة بتلك اليونانية ، الواحدة بعد الأخرى ، وخلا الميدان من الغريمات المزاحمات لحسناء البندقية !

وذهبت المرأة الى أبعـد من ذلك في انتقامها ، فارادت أن يمتد ذلك الانتقام الى عالم الأموات ويتنـــاول ما بقي في القسطنطينية من آثار لليونانيين · فجعلت السلطان يأمر بنبش القبور التي كانت تضم رفات ملوك الروم في تلك المدينة العظيمة · ففتحت القبور وألقيت عظام أولئك الملوك في الطرق والازقة تنهشها الكلاب ويتقاذفها الاطفال !

وأدركت نورينو أم السلطان ان نفوذ هذه المرأة لا يحـــارب ولا يقاوم · فاذعنت لحكم الزمن القاسي وتقربت من زوجة ابنها وماتت بين يدي صفية راضية عنها ، معجبة بها ، بعد أن أوصـــتها خيرا بقهرمانة القصر « جانفيدا » ونصحتها بأن تعتمد عليها في ادارة شئون الحريم ·

ومنذ ذلك الوقت جعلت صفية تتدخل في الأمور السياسية وتصدر أوامرها الى الوزراء والقـــواد والحكام ، معتمدة في كل ما يتعلق بالقصر والحرم على صديقتها الجديدة جانفيدا ···

***

أرادت الملكة صفية ذات يوم أن تحصل على مبلغ من المال دون أن يعلم به السلطان زوجها ، فطلبته من وزيره الأكبر ، فرفض أن يجيبها الى رغبتها بحجة أن الخزينة خاوية خالية وأنها على أبواب الافلاس ٠

حنقت عليه المرأة وجعلت تفكر في وسيلة للانتقـــام منه دون أن يشعر السلطان بذلك أو يداخله ريب من ناحيتها ٠ فوجدت فى كنانتها بين السهام الكثيرة سهما صائبا ٠

دخلت على السلطان فى حجرته وقد البست وجهها قنـــاع الخوف والجزع وقالت بصوت مضطرب :

ـ علمت من أحد الخصيان الجواسيس أيها الحبيب ، أن بعض كبار الرجال فى هذا القصر يدبرون مكيدة لاثارة الجيش عليك ، لأنك لم تنقد الضباط والجنود ما استحق لهم من رواتبهم منذ شهور !

فقطب السلطان جبينه وقال :

ـ نعم ٠٠٠ لم أدفع لأن الخزينة لا تحوى المال اللازم ٠ ولا أخفى عنك انني كثير الخوف من المستقبل ٠٠٠

ـ لكنني أدلك على وســـيلة للخلاص من هذا المأزق : ان النقود المتداولة الآن في أنحاء السلطنة جميعها من الفضة والنحاس ٠ فأضف اليها أيضا ربع قيمتها من النحاس !

ـ انها لفكرة حسنة !

ـ واذا تذمر الشعب أو تحرك الجيش ، فلا تنس أن تلقى التبعة كلها على وزيرك الأكبر اتقاء للخطر !

وهذا ما حدث ٠٠٠

فقد تذمر الشعب وتحرك الجيش ...

وعندما هجم الجنود الانكشارية على القصر السلطانى طالبين أن تدفع رواتبهم كاملة ، وأن تعاد قيمة النقود الى ما كانت عليه ، أوفد السلطان من لدنه رسولا يقول لزعمائهم :

ـ ان السلطان غاضب على وزيره الأكبر صاحب هذه الفكرة ومنفذ هذا المشروع ٠ ومولانا يعدكم بأنه سيعيد الى النقود قيمتها الســـابقة ويدفع لكم رواتبكم كاملة غير ناقصة ٠ أما اليوم فانه يدفع اليكم رأس وزيره المسئول !

وقاد جنود الحرس الوزير المسكين وسلموه للانكشارية ، فذبحوه أمام مدخل القصر مهللين صائحين :

ـ نصر الله السلطان !

***

فى سنة ١٥٨٤ للميلاد الموافقة سنة ٩٩٢ هجرية مات ايفان الرابع

قيصر روسيا الملقب بالرهيب • وكانت السلطنة العثمانية مرتبطة في عهده مع روسيا بمعاهدات عدة وقع عليها سليم الثاني السكير • فحملت الملكة صفية زوجها على نقض تلك المعاهدات ، لا حبا فيه أو حرصا على مصلحة أمته ، بل انتقاما من اثنتين من زوجات السلطان علمت صفية أنهما من بنات الصقالبة ، وأنهما تكيدان لها بين النساء • وعندما عادت القبائل الروسية الى شن الغارة على حدود السلطنة العثمانية ، أمر مراد الثالث بذبح الروسيين المقيمين في ولايته • فتناول السيف الزوجتين الروسيتين فيمن تناولهم من الأبرياء !

***

وكانت احدى نساء القصر ــ واسمها وردة ــ من اللواتي يبعثن الحسد الى صدر صفية التي كانت ترمي الى الاستئثار بعواطف السلطان وشعوره وماله دون سواها من النساء • فسعت الى التخلص من «وردة» كما تخلصت من غيرها •

وحدث أن هاجم اللبنانيون مدينة طرابلس وضربوها وأحرقوا منازلها وذبحوا حاميتها • فاغتنمت صفية الفرصة السانحة وقالت للسلطان :

ــ ان وردة من بنات ذلك الجيل المتمرد • وهي تنتمي الى أولئك العصاة الثائرين • فقد جاء بها اليك النخاسون بعد أن اختطفوها من بلادها • وهي منذ ذلك الوقت لم تغفر لك قبولها في قصرك • فهي خائنة ودساسة جاحدة • اقتلها واسترح وأرح الناس منها !

فقتلها السلطان وقتل معها البنات الثلاث اللواتي رزقهن منها • وسير جيشا لمحاربة اللبنانيين فعاد الجيش على أعقابه خاسرا !

***

وفي سنة ١٥٩٦ مات مراد الثالث في الخمسين من العمر •••

وتساءل الناس : « من يتبوأ العرش من بعده ؟ »

أما السلطانة صفية الزوجة المحبوبة فانها لم تتساءل ولم تتردد ولم تفكر طويلا •

كانت قد رزقت من السلطان ولدا وعقدت النية على جعله سلطانا بعد أبيه •

واسم الولد محمد •••

لكن أبناء السلطان كانوا كثيرين ، وكان كل منهم يطمع في السلطنة ويتطلع الى العرش •

لابد اذن من القضاء على مطامعهم • ولا سبيل الى ذلك الا بالقضاء على حياتهم !

وفي ذات يوم ، قبل طلوع الشمس ، انتشر في العاصمة خبر صعق له الناس وترددوا في تصديقه • لكنهم مالبثوا أن وثقوا منه وثوقهم من

أشعة الشمس الساطعة : « أصبح محمد بن مراد صاحب العرش الوحيد باسم محمد الثالث ٠ أما أخوته فقد ماتوا جميعا مذبوحين ذبح الانعام !».

ولم يأمر محمد الثالث بقتل اخوته الا نزولا على ارادة أمه صفية وعملا بنصيحتها !٠٠

وظلت تلك المرأة الداهية مسيطرة على ابنها كما كانت مسيطرة على زوجها ٠ فاصبح محمد الثالث ألعوبة في يدها كما كان أبوه مراد الثالث من قبل ٠٠٠

ومات الابن فى سنة ١٦٠٣ للميلاد الموافقة سنة ١٠١٢ هجرية ٠ فأرادت صفية بالرغم من تقدمها فى السن أن تصنع بحفيدها احمد ما صنعته بأبيه وجده من قبل ٠ لكن السلطان الشاب ، الذى لم يكن قد بلغ الخامسة عشرة من العمر ، رفض الانقياد لأهواء جدته ٠ فوضع تحت تصرفها قصرا جميلا على ضفاف البوسفور وأرغمها على الاقامة فيه بقية أيام حياتها ٠٠٠

ومن هناك أوفدت السلطانة صفية رسولا الى مصر فنقش اسمها على لوحة من الرخام ، فى ذلك المسجد الذى ادعت تلك المرأة انها شيدته فى القاهرة ، والذى لا يزال يحمل اسمها الى الآن !

وماتت صفية ابنة البندقية وحبيبة مراد الثالث ، منسية مهملة دون أن يدون فى السجلات تاريخ موتها !

يتيمة القصر

عاشت واشتهرت بين الناس
وماتت معززة مكرمة . ورعاها
امبراطور بعنايته . ولكن أحدا غيره
لم يعرف حقيقة أمرها !



الامبراطور

حفظ سر « يتيمة القصر »

لم يعرف أحـــد اسمها الحقيقي ولم يعلم أحـــد من أين أتت تلك الفتاة ٠ فان حياتها بقيت سرا من الاسرار ٠ والرجل الوحيد الذى كان فى استطاعته أن يفضى الى الناس بحقيقة أمرها ، لم يفعل شيئا من ذلك بل ظل صامتا متكتما ، وحمل معه سر الفتاة الى القبر ٠

ذلك الرجل هو نابليون بونابرت ٠

عرفت فى مصر باسم « سالمة » وعرفت فى فرنسا باسم « مارى » ثم أطلق عليها فيما بعد اسم « جولييت » ٠

عرفها القائد نابليون بونابرت فى مصر :

ففى ٢١ من يوليو سنة ١٧٩٨ ، انتصر الفرنسيون بقيادة بونابرت على جيش المماليك فى معركة « انبابة » المعروفة بمعركة « الاهرام » والتى قيل ـ وليس هناك ما يثبت هذا القول على الاطلاق ـ ان القائد الفرنسى الشاب خاطب جنوده خلالها بهذه العبارات : « ان أربعين قرنا تنظر اليكم من أعلى هذه الأهرام ! »

دخل الفرنسيون القاهرة ، وفر مراد بك زعيم المماليك على رأس ثلاثة آلاف فارس الى الوجه القبلى ، وتعقبـــه فريق من الفرنسيين وفى ٢٧ من يولية دخل بونابرت المدينة فى موكب حافل ٠

وجىء اليه ذات يوم فى قصره بحى الازبكية بفتاة بارعة الجمـــــال أمسك بها الجند وهى تحاول الوصول الى القائد بلا استئذان ٠ فأكرم بونابرت وفادتها ، وطلب اليها أن تطلعه على حقيقة أمرها وعلى السبب الذى من أجله طلبت الوصول اليه ٠

رفضت الفتاة أن تجيبه أمام رجال حاشيته وضـــــباط جيشه ، فادخلها بونابرت احدى قاعات القصر ، واختلى بها ساعة كاملة ثم خرج وأصدر أمره الى الضابط المشرف على النظام فى القصر بأن يعد للفتاة مكانا تقيم فيه ، وأوصاه بها خيرا ، وطلب اليه أن يحذر الضباط والجنود من التعرض لها ٠

وكانت الفتاة تحسن اللغتين الفرنسية والعربية ، وكل ما عرفه عنها الناس ان اسمها « سالمة » وأنها من نساء مراد بك ، هربت من قصره بعد انهزامه والتجأت الى القائد الفرنسى ٠

أما جنسيتها ودينها وشخصيتها وأسرتها وتاريخ حياتها ، فهذا ما لم يعرف الناس عنه شيئا ، وما لم يطلع عليه غير بونابرت ٠

وكانت الفتاة تروح وتجيء وتخرج أحيانا الى الأسواق ، وتجالس الضباط الفرنسيين في أماكن اللهو التي أنشأها بونابرت في الأزبكية ، وتستقبل بعض المصريين من أعضاء المجلس الكبير · ولكنها كانت دائما تخفي وجهها وراء حجاب كثيف ، بحيث لا يرى الناظر اليها من جمالها الفتان غير عينين سوداوين براقتين · ولم ترفع الفتاة الحجاب عن وجهها قط ، الا عندما كان نابليون بونابرت نفسه يطلب منها ذلك في مجلسه وأمام ضباط جيشه ·

وكثيرا ما رآها سكان القاهرة في ذلك الوقت بين رجال الحاشية ، وراء القائد الفرنسي ، في الحفلات والأعياد ·

واختفت الفتاة سالمة عن الأنظار لما غادر بونابرت القاهرة على رأس جيشه ، وسار به لفتح سورية ، حيث ذاق للمرة الأولى مرارة الفشل والانكسار ، وعجز عن اقتحام أسوار عكا المنيعة ···

لم تظهر سالمة أمام الناس طوال ذلك الوقت ، ولم يرها الضباط والجنود الا بعد أن عاد بونابرت من سورية ·

ثم سافر القائد الى فرنسا خلسة في ٢٣ من أغسطس سنة ١٧٩٩

ومنذ ذلك اليوم لم يقع نظر أحد على الفتاة · وأدرك الجميع أنها سافرت مع القائد الى فرنسا ، أو أنها لحقت به بعد رحيله بأيام ·

وانطلقت الألسنة بالشائعات والأقاويل ، عن علاقة بونابرت بتلك الفتاة المجهولة الغريبة الأطوار ، فادعى بعضهم أنها عشيقته وذهب آخرون الى أنها جاسوسة ·

وكان الناس كلما ذكروها يسمونها « يتيمة القصر » ·

وبهذا الاسم عرفها الفرنسيون في باريس ، حيث أعد لها بونابرت مكانا لاقامتها · ولكنه طلب اليها أن تغير اسمها العربي ، وأطلق عليها اسم « ماري »

وبعد أن رفعت الاقدار القائد بونابرت الى أوج المجد فجلس على عرش فرنسا ، وأصبح صديق سالمة يدعى نابليون الأول ، وزحف بجيشه اللجب على دول أوربا المتحالفة يجتاح أراضيها ويدك عروشها ويحطم تيجانها ويحتل عواصمها ، كانت الفتاة « ماري » تلحق بالجيش أينما حل وحيثما ذهب ·

وكان نابليون يدعوها اليه كلما أقام مدة من الزمن في عاصمة من عواصم أوربا ، فمكثت ماري في قصور الاباطرة والملوك في برلين وفينا وموسكو وغيرها من سنة ١٨٠٥ الى سنة ١٨١٣ ·

وشهدت حريق « الكرملين » مقام القياصرة في عاصمة روسيا ·

ونامت في الحجرة التي شاءت الاقدار بعد ذلك الوقت بسنوات أن ينام فيها ابن نابليون الاول « فرخ النسر » في قصر شنبرون في فينا ·

وظلت الألسنة تتناقل الشـــــائعات والأقاويل عن الفتاة التابعة للامبراطور كظله ، واطلق عليها بعض الضباط اسم « جولييت » على سبيل المداعبة ، وكانوا يتهامســـــون فيما بينهم بأن « روميو » عشيق الفتاة هو الامبراطور نفسه !

ولكن الظواهر لم تدل في وقت ما على أن نابليون علاقة أثيمة بتلك الفتاة الغريبة المجهولة الأصل · وكان كلما حدثه عنها أحد يبدو التأثر على وجهه ، ويقول بصوت متهدج : « ان ماري فتاة شجاعة نبيلة · واننى أحفظ لها ولأمها في أعماق قلبي أطيب الذكرى ! »

وفي شهر مارس سنة ١٨١٤ كانت سالمة أو ماري أو جولييت أو يتيمة القصر مقيمة في باريس ، حيث أصيبت بحمى شديدة أودت بحياتها بعد ثلاثة أيام ·

وكان الامبراطور في ذلك الوقت يعاند الزمن ويواجه الصعاب وقد اكتنفته من كل حدب وصوب ، فاضطرته الظروف الى النزول عن عرشه بعد وفاة « يتيمة القصر » بثلاثة أسابيع ·

ولكنه علم بموتها قبل رحيله عن فرنسا · فأمر وهو في ميدان القتال بأن يوضع على قبرها اكليل من الورد الأبيض · وظلت شخصية الفتاة المعروفة باسم يتيمة القصر سرا من أسرار القصور في عهد نابليون

أفرنسية هي أم مصرية ؟

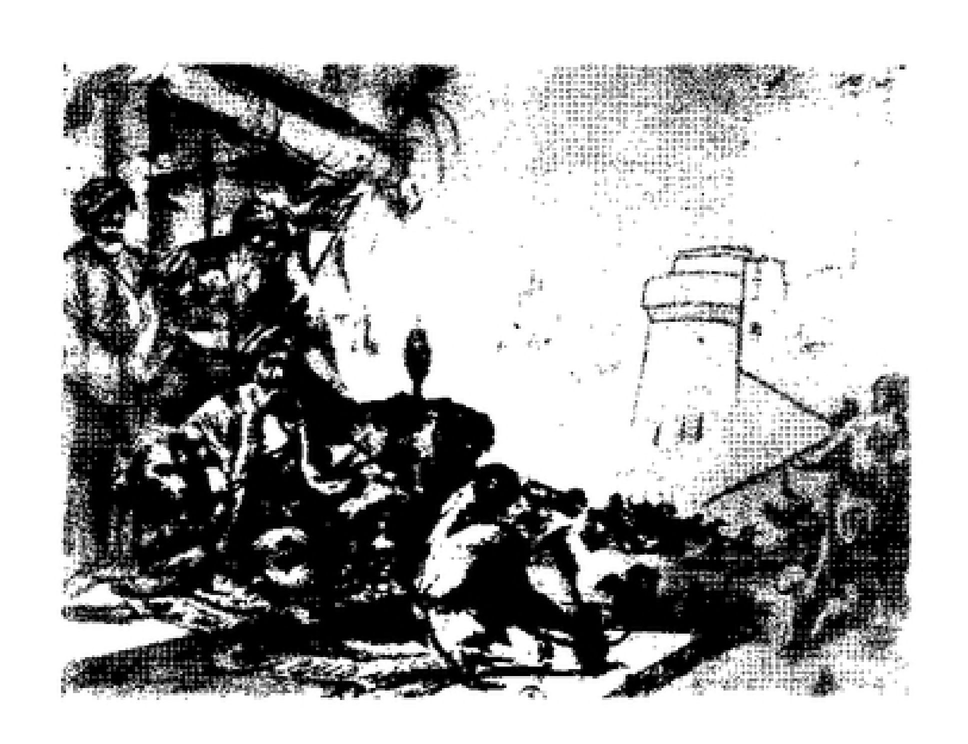
أحبيبة نابليون هي أم جاسوسة كما كانوا يقولون ؟

هذا ما لم يعلمه أحد ـ ولن يعلمه أحد ـ فقد دفن سر الفتاة معها ومع الامبراطور !

وقد عثرت على قصـــتها مدونة في مخطوط على ورق غليظ ، بلغة فرنسية ركيكة ، في « متحف بونابرت » بالقاهرة · وهو الذى أنشأه العالم الفرنسى شارل جلياردو في المنزل المعروف بدار السنارى بالسيدة زينب ، والذى تشتت محتوياته بعد وفاة مؤسسه ·

الجارية زليخة

كان يروى ظمأه من اللمـــا، فى
الصباح ، فيعاوده التعطش اليها فى
المساء !



مذبحة المماليك بقلعة القاهرة
فى أول مارس سنة ١٨١١

في اليوم الأول من شهر مارس سنة ١٨١١ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٢٢٥ للهجرة ، دعا محمد علي والي مصر بكوات المماليك الى وليمة في قلعة القاهرة ، بمناسبة استعداد ابنه طوسون للرحيل الى الحجاز ، على رأس حملة عسكرية ، لمحاربة الوهابيين هناك .

وفي ذلك اليوم وقعت مذبحة المماليك :

كانوا مطمئنين ، واثقين من أنفسهم ومن مناعتهم ، فقبلوا الدعوة وذهبوا جميعا : اربعمائة وسبعون شيخا وكهلا وشابا ، قتلوا بدون أن يتمكنوا من الدفاع عن انفسهم . ولم ينج منهم غير واحد فقط ، قيل انه قفز بجواده من فوق السور الى خارج القلعة !

بعد بضعة أيام من ذلك الحادث الرهيب ، خرج محمد علي لتفقد المدينة والاطمئنان الى أن الزمام قد أصبح بيده لا ينازعه فيه منازع . وعاد في المساء الى قصره بشبرا ، حيث كان يختلي الى نفسه ويرسم خططه للمستقبل .

وما كاد يأخذ مجلسه في حجرة تطل على النيل ، حتى جاءه حاجب يقول : ان الجارية ، زليخة ، مشرفة على الموت ، وانها تطلب بالحاح أن تراه !

كان محمد علي يعطف على تلك الجارية ويغدق عليها النعم ، لانه اعتقد أنها جلبت له السعد منذ اليوم الذي استجارت به ، وطلبت أن تكون واحدة من جواريه .

لم يكن قد اشتراها بمال ، ولا تلقاها هدية من أحد ، بل هي التي جاءت اليه من تلقاء نفسها ، واعترضت طريقه عند باب قصره ، فأمر بادخالها ، وسألها عن حقيقة أمرها فتوسلت اليه بالا يلح في السؤال ، وأجابها الى طلبها ، ومرت أعوام لم يعرف محمد علي عن الجارية الغريبة غير أن اباها من صعيد مصر وأمها من السودان . الى أن جاء ذلك اليوم الذي عاد فيه الوالي الى قصره ، وقيل له : ان زليخة مشرفة على الموت ، فذهب اليها حيث كانت راقدة . وسمع منها القصة التي كان يجهلها ، قصتها قبل أن تلجأ اليه ، بل التي جعلتها تلجأ اليه .

قالت زليخة :

« كان أبي يدعى « عمار السيوطي » . وهو احد رجال البرديسي

وجندي من جنود المماليك . حارب في صفوفهم وقتل في احدى المعارك بعد موت أمي بسنتين . فتركني في هذا العالم وحيدة معدمة .

ولما علم البرديسي بأمري أحضرني اليه ، وبعد أن أقمت عنده بضعة أيام أرسلني الى « مراد بك » الذي ضمني الى جواريه في قصره .

ولم تطل اقامتي عند مراد بك أكثر مما طالت عند البرديسي . فقد أرسلني ذلك الرجل الى مدينة عكا ، هدية منه الى واليها أحمـــد الجزار مع قافلة حملت اليه كثيرا من النفائس !

وكنت في قصر الجزار في عكا عندما غزا الافرنج هذه البلاد ومشى قائدهم بونابرت على رأس جيش عظيم لفتح ذلك الحصن المنيع وطرد الجزار من ولايته . وقد مرت علينا جميعا في ذلك الوقت أيام رهيبة ذقنا فيها الامرين ، وقاسينا من ويلات الحرب وأهوالها ما لم يقاسه كثيرون ...

ثم رحل جيش بونابرت عن المدينـــة بعد أن فشل في الاستيلاء عليها ، وعادت الأمور الى حالتها السابقة والمياه الى مجاريها الى أن حدث ذات يوم في القصر حادث أسفر عن فاجعة دموية مؤلمة .

كان عدد السراري في القصر يزيد على الثلاثين ، وكنت أنا واحدة منهن ، ولم يحدث مني قط ما يستحق التأنيب ويستوجب غضب سيد القصر احمد باشا الجزار .

لـكن واحـــدة منا ، واسمها زليخة مثلي ، كانت تذنب مع أحـد الضباط . وكنا جميعـــا نعلم بعلاقتها الأثيمة به ، لكننا حفظنا السر وتكتمنا خوفا من العقاب الذي قد ينزله الجزار بالجميع على السواء .

لكن ذلك الرجل ، الذي كان يحوط نفسه بالجواسيس والزبانية المخلصين ، تمكن في النهاية من هتك الحجاب عن السر . وجعل يراقب زليخة بنفسه مراقبة شديدة ، حتى فاجأها ذات يوم وهي تأخذ من خادم القصر وردة بعث بها اليها حبيبها !

وكانت تلك الوردة آخر ابتسامة من ابتسامات الحياة لتلك المرأة الشقية التعسة ! فقد نزل الجزار الى حديقـــة القصر وارسل في طلبها فأسرعت اليه ، وكان اسراعها الى الموت ، فان الجزار استل سيفه وقطع رأسها بضربة واحدة . ثم نادى جماعة من « الهوارة » الذين كانوا في خدمته وأمرهم بأن ينزلوا السراري جميعا الى الحديقة الواحدة بعد الأخرى ويقطعوا رءوسهن أمامه ، حتى يأمرهم بالكف عن ذلك !

كان الجزار نمرا في صورة انســـان ، دائم التعطش الى الدماء ، يروى ظمأه منها في الصباح فيعاوده التعطش اليها في المساء . وقد صدع الهوارة في ذلك اليوم بأمره وأتوا بالسراري اجابة لطلبـــه . وجعلوا يقطعون رءوسهن على مرأى منـــه وهو يضحك ويطرب ويغمس يديه في الدماء المتدفقة من النحور ...

وكان أحد أولئك الجنود يعرفني ، وهو مصري ، من أبناء دمياط ،

فأبلغني الخبر ومهـــد لى سبيل الفرار واخراجى من القصر خفية بعد أن زودني بالماء والطعام . وطلب لى أن أهرب من المدينة وأعود الى مصر اذا استطعت !

فعملت باشارته وغادرت القصر بعد أن علمت منه أن الهوارة قــد ذبحوا عشرين امرأة من السرارى ، وان الجزار لايزال يطلب المزيد وقــد قطعت المسافة بين عكا ومصر ماشيا على قدمى . وبلغ الجزار خبر فرارى فاطلق فى اثرى جماعة من زبانيته لم يتمكنوا من العثور على بالرغم من اننى التقيت بهم وعرفتهم !

وفى اليوم الذى جئت فيه الى هذا القصر . كنت قد قضيت فى مصر مدة لا أعرف مداهـــا . تارة أخدم فى البيوت . وتارة أستجدى فى الطرقات ... ولكن ما لقيته من عذاب لا يعد شيئا يذكر اذا قيس بمـــا كان ينتظرنى ــ لو بقيت فى كنف الجزار بمدينة عكا !

❋❋❋

روت زليخة قصتها ، وقضت نحبها . ولما أدركت أن دمعة طفرت من عين الرجل القاسى . الذى كان ، من جهته ، قد ذبح أربعمائة وسبعين رجلا فى يوم واحد . والذى دمعت عينه فى تلك اللحظة لأنه اعتقد أن موت الجارية زليخة قد يوقف الحظ عن مجاراته ومرافقته فى الحياة !

ومن أغرب ما حدث . بعد وفاة زليخة بنت عمـــار السيوطى . أن الوالى الذى استتب له الامر بعـــد مذبحة المماليك . واطمأن باله . قد ساق الى حوزته عشرات من الجوارى اللواتى كن فى قصـــور ضحاياه . وكانت بينهن واحدة تدعى أيضا «زليخة» عرف عنها أنها تقرأ فى الكف وتضرب بالرمل . وتكشف الطوالع ، وان « محمد على » كان يستشيرها فى بعض الشئون الخاصة والعامة ، فأصبح لها عليه نفوذ وسلطان !

الضريح الخاوى

لم يعرف أحد من هى ؟ ولا من قتلها ؟ ولا من سرق جثتها بعـــد دفنها ؟

الأمير بشير الشهابي
أمير لبنان



قصر بيت الدين
مقر الأمير بشير بلبنان



ضرب الجيش المصرى الحصار حول مدينة عكاء الحصينة فى سورية الجنوبية ، بقيادة ابراهيم بن محمد على . فى عام ١٨٣١ للميلاد ، الموافق لعام ١٢٤٦ للهجرة · فكان ذلك بدء الحرب الطاحنة بين مصر والدولة العثمانية ، والتى بلغ فيها المصريون ضفاف البوسفور ومشارف الآستانة !

قبل ذلك ببضعة أعوام ، كان أمير لبنان بشير الشهابى قد زار مصر ، ونزل ضيفا على محمد على فى قصر شبرا . واتفق الرجلان على ان يعملا معا يدا واحدة ·

ولما وصل الجيش المصرى الى سهل عكا . هبط اليها الأمير اللبنانى من مقره بقصر « بيت الدين » لتحية الوافدين . ومعه مائة من فرسانه ·

وجدد بشير وابراهيم الاتفاق الذى تم من قبل بين محمد على وبشير فى القاهرة ، وفى مضارب الجيش فى عكاء وضعت الخطة النهائية لتعاون الفريقين فى تلك المغامرة التى اقدما عليها

وقفل بشير راجعا الى مقره الجبلى ، تاركا ابنه الامير « خليل » فى عكاء ، حيث وافته قوة أخرى من الفرسان ·

وفى بيت الدين ، فوجىء الامير اللبنانى بخبر غريب دهش له الرجل الذى عركته الايام والحوادث ، والذى كان يعتقد أن لا شىء يدهشه بعد ما رأى فى الدنيا ما رأى !

قيل له ان خدم القصر كانوا يعمون فى الحمامات كعادتهم ، بعد رحيله الى عكاء ، فعثروا فى الدهاليز على جثة امرأة لم يتبينوا هويتها ، ولم يعرفوا كيف دخلت الى ذلك المكان خلسة ، دون أن يقع عليها نظر الحراس ؟ وكيف قتلت دون أن يسمع بها أحد صوتا ؟

ثار ثائر الامير لهذا الخبر : وسأل القوم عما فعلوه بالجثة ، فأجابوه بأنهم يحتفظون بها فى احدى قاعات القصر ، بعد أن صبوا عليها الادهان والعطور ، فى انتظار عودة الأمير لاطلاعه على ذلك الحادث الغريب !

ذهب بشير الى تلك القاعة ، فاذا به أمام جثة فتاة كانت بلا شك جميلة فاتنة ، وقد ظهرت فى عنقها آثار خنق ، تدل على أن القاتل استخدم حبلا للقضاء عليها ، وفى معصميها أساور ذهبية ، وفى قدميها خلخالان من الفضة ، وفى شعرها الاسود الطويل المسترسل حليتان ثمينتان ···

أدرك الامير أنه أمام فتاة تنتمي الى احدى الاسر الغنية الشريفة ، وعزم على تمزيق الحجاب عن سر تلك الضحية المسكينة ...

وزاد في عزمه ما كان يعتقده في نفسه من قوة الارادة وبعـــد النفوذ .

أما كان الناس في جميع أنحاء لبنان ، يروحون ويجيئون هادئين مطمئنين . في ضوء النهـار أو في دجى الليـل ، دون أن يعترضهم أحد في الطريق ، ودون أن يقع في البلاد حادث اعتداء أو سطو أو سرقـــة أو قتل ؟ أما كان ذلك الجبل المنيع مضرب الأمثال بجمـــاله وأمنه على السواء ؟ فكيف اذن تقع تلك الجريمة البشعة في بيت الدين ، عاصـمة الامارة ، وفي داخل القصر مقر الأمير ؟

واى أثر سيحدثه ذلك في طول البلاد وعرضها ؟

حاول الشهابى أن يعرف الحقيقة . وعرض جثة الفتاة على الناس ، وأرسل المنادين يطوفون في القرى المجاورة ، والرسل الى أطراف امارته .

وأذاع الخبر في كل مكان ، ولكن ذلك كله لم يجد نفعا ، وظل أمر الفتاة الغريبة ، التي وجدت مخنوقة في دهاليز الحمامات في بيت الدين ، مجهولا لدى أمير لبنان الذى كان يعتقد أنه لا يجهل شيئا مما حدث ، ولن يجهل شيئا مما سوف يحدث !

فأمر بشير بأن تدفن الفتاة المجهولة في قبر يحفر لها في حديقـة القصر ، بين الورود والرياحين . وغادر الامير مقره في بيت الدين ، على رأس فرسانه وفي صحبة أبنائه ، الى ميادين القتال وساحات الوغى !

***

شغلت الحروب والمعارك الامير اللبناني عن متابعة البحث والسؤال والتحقيق ، في أمر تلك الفتاة الغريبة . وكان كلما عاد الى بيت الدين، يعير هذا السر الغامض جانبا من وقته واهتمامه . ولكنه لم يتمكن من كشف الستار عنه .

وزاره في قصره الطبيب الفرنسي كلوت بك ، الذى كان يرافق الجيش المصرى في سورية ولبنان ، وأقام عنده ضيفا بضعة أيام . فقص عليه بشير قصة الفتاة القتيل الغريبة ، وأفضى اليه بدهشته وغيظه من عجزه عن معرفة القاتل وهوية الفتاة القتيل .

وخطر للامير أن يعرض على الطبيب جثة الفتاة او على الأصح ، ما تبقى منها ! فنادى رئيس الحرس، وأمره بأن يعهد الى العمال بنبش القبر واستخراج النعش الذى وضعت فيه القتيل المجهولة !

وأسرع رئيس الحرس والعمال الى تنفيذ الامر ، فرفعـوا الاتربة وأزاحوا بلاط الضريح ، في حضور الامير والطبيب كلوت بك .

وتراجعوا جميعا مذهولين حائرين ، ينظر كل منهم الى الآخر ...

كان القبر خاويا لا شيء فيه !

وثارت ثائرة الأمير الشهابي من جديد . كما ثارت قبل ذلك اليوم بشهور • ! ونادى حوله الضباط ورجال الحاشية وخدم القصر • وحاول أن يعرف منهم شيئا عن اختفاء الجثة . وعن هذا السر الجديد الذي شغل باله كالسر القديم !

ولكن الجميع أقسموا أنهم لايعرفون شيئا . وأنهم لم يروا أحـدا يقترب من الضريح أو يعبث به !

وقال أحدهم :

ـ انى أرى في هذا الامر يا مولاى يد ابليس اللعين ! ولا يبعـد أن تكون تلك الفتاة من الجان !!

فضحك الامير وهدأت ثورته • وبعد أيام غادره الطبيب كلوت بك، فودعه بشير وأغدق عليه العطايا ، وقال له :

ـ يخيل الى أن أمر هـذه الفتاة سيظل سرا دفينا فى هذا القصر •

وهو على كل حال السر الوحيد الذي عجز بشير الشهابي عن كشف الستار عن حقيقته !

ولم يعلم أحد من كانت تلك الفتاة العربية . وكيف دخلت القصر ، ومن أدخلها اليه ، وأي يد امتدت اليها وخنقتها وتركتها جثة هامدة فى دهاليز الحمامات ؟ ومن القاتل الذي تبع فريسته الى القبر ، فسرق جثتها وأخفاها فى مكان مجهول ؟

السلطانة الإفرنجية

عرفت فى التاريخ بأنها والدة
السلطان ، لا لأنها أمه فى الواقع ،
بل لأنه أحبها مثل أمه !



السلطان محمود الثاني على عرشه

في شهر مارس – آزار – سنة ١٨١٦ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٢٣١ للهجرة ، وصلت الى الاســــتانة ، عاصمة الامبراطورية العثمانية ، قافلة من التجار الفرنسيين ، نزلوا في « خان » على مقربة من القرن الذهبي ، وأسرع رئيس الجماعة الى قصر السلطان محمود الثاني ، وطلب من رئيس الديوان اذنا بالمثول بين يدي صاحب العرش ، قائلا انه يحمل اليه كتاب توصية من الملك لويس الثامن عشر ، ملك فرنسا في ذلك الوقت ·

واستقبل السلطان رئيس التجار الفرنسيين ، وشمل الجماعـــة بعطفه ، وأمر بأن تمهـــد لهم سبيل الطواف في البلاد ، وقضـــاء الاعمال التي جاءوا من أجلها ، وطلب الى رئيسهم أن يطلعه على أسماء رفاقه ·

فكتب الرجل الاسماء في ورقة ، وعندما ألقى السلطان نظره عليها، بدت على وجهه دلائل الاهتمام ، وقال لمحدثه :

– اذا كنتم في حاجة الى شيء أيها الغريب ، فابواب القصر مفتوحة أمامكم في كل ساعة

وفي اليوم التالي ، وصل عثمان أغا ، رئيس حجاب السلطان ، الى الخان الذي كان التجار نازلين فيه ، وطلب مقابلة أحدهم وهو يدعى «جيرار دي بوك »

أسرع صاحب الخان الى التجار ، وأبلغهم رغبة رئيس الحجاب ، فتقدم شاب في العقد الثالث من عمره ، طويل القامة ، بهي الطلعة ، وأجاب :

– انا جيرار دي بوك !

فخاطبه عثمان أغا بلهجة الآمر قائلا :

– اتبعني !

– الى أين ؟

– الى السراي !

وبعد نصف ساعة ، كان الشاب ماثلا في حضرة « السلطانة والدة »

وقف الشاب حائرا ، يسائل نفسه ما الداعي الى المجيء به الى ذلك المكان ··· ؟

لكن السلطانة بددت مخاوفه ، وأعادت الى نفسه الاطمئنان بابتسامة لطيفة هادئة

هى امرأة فى مطلع العقد الخامس من عمرها ، بارعة الجمال ، فاتنة ساحرة

دعت الشاب الى الجلوس وقالت :

ـ لا تخف ، ما جئت بك الى هنا لكى ألحق بك أذى

قالت ذلك ، ونظرت اليه نظرة ملؤها العطف والحنان ، فاقترب الشاب ، وتناول يدا مدت اليه ، وطبع عليها قبلة احترام واجلال ٠

ثم أشارت السلطانة الى عثمان أغا بالانصراف ، فخلا لهما ولغريب المكان ٠

ـ ابن من أنت ؟

ـ أنا يتيم الابوين يا صاحبة الجلالة ٠ تبنانى فرنسوا دى بوك دى ريفرى ، وسمح لى بأن أحمل اسمه ، فعرفت منذ ذلك الوقت باسم « جيرار دى بوك »

ـ وما جاء بك الى هنا ؟

تردد الشاب لحظة ، فقالت له :

ـ لا يدهشنك سؤالى ٠ قص على قصتك ٠ وسوف أطلعك بعد ذلك على أمر تجهله ، فتعلم ان المرأة التى تخاطبك الآن ليست غريبة عنك بقدر ما تظن !

فقال الشاب :

ـ ولدت فى جزيرة مارتينيك بأمريكا ، وهى تابعة للحكم الفرنسى ، لأبوين فرنسيين ٠ لكننى قضيت حياتى فى باريس حيث تلقيت العلوم الحربية ، فانخرطت فى سلك الجيش البحرى ، ونلت رتبة ملازم ، ولكننى تركت الجيش بعد وفاة فرنسوادى بوك ، وانصرفت الى التجارة ، وأنا قادم الآن الى هذه البلاد لابتياع كمية من الاسلحة الشرقية ، والاتجار بها فى فرنسا

ثم سكت الشاب لحظة وقال :

ـ ولكن ، أية أهمية لهذه التفاصيل فى نظرك ياصاحبة الجلالة ؟

ـ أهمية كبيرة

ـ لا أفهم

ـ سوف تفهم !

شعر الشاب بأن « السلطانة الوالدة » سوف تطلعه على أمر رهيب ، فشخص اليها لاهثا ، وتمتم قائلا :

ـ لقد وعدتني ...

فقاطعته السلطانة وقالت بصوت عذب :

ـ انك تنتظر مني أن أفضي اليك بما وعدتك به . فأصغ الى اذن :

ان المرأة التي تخاطبك لم تر النور تحت سماء هذه البلاد ، ولا يجرى في عروقها دم تركي . بل هي فرنسية مثلك . ولدت في جزيرة مارتينيك وطنك ، وهي تنتمي الى الدوحة التي سعد فرنسوا دي بوك أن تصبح غصنا من أغصانها .!

ـ الى أسرة دي بوك ؟

ـ أنا « ايميه دي بوك »

فانتفض الشاب وقال مدهوشا :

ـ الرواية اذن صادقة ؟

ـ أجل . الرواية التي تناقلتها الالسنة صادقة فاستمعها من جديد واحملها معك الى أهلك وذويك وأبناء قومك !

ـ تكلمي . ومزقي الحجاب عن ذلك السر . الذي طالما أقلقنا وشغل بالنا وأفكارنا ...

ـ عندما هاجم القراصنة السفينة التي كانت تقلني من فرنسا الى جزيرة مارتينيك . مع خادمي الزنجي . لم يتمكن أحد ممن كانوا في السفينة من النجاة . فقد وقعنا جميعا في قبضة القراصنة الذين ساقونا مكبلين بالحديد الى مدينة الجزائر . وهناك أخذني أحد تجار الرقيق . وقدمني هدية الى حاكم المدينة ، بابا محمد . وكان يناهز في ذلك الوقت الثمانين من عمره . وكنت أنا في الرابعة عشرة فقط !

ـ وبعـــد ؟

ـ ضمني بابا محمد الى فريق من النساء كان عازما على ارســـالهن الى عاصمة السلطنة العثمانية . وفي ذات يوم . أقلعت بنا ســـفينة كبيرة . وما مضت على أسابيع حتى وجدت نفسي في هذا القصر ، قصر السلاطين ، وقيل لي : ان بابا محمد قد أهداني الى سيده ومولاه السلطان سليم الثالث !

ـ وبعد ؟

ـ مكثت بضعة أيام في دائرة الحريم ، ثم أرسل السلطان في طلبي ، ولما مثلت بين يديه خاطبني قائلا : « لقد دخلت هذا القصر يا ابنتي ، وأود الآن ألا تخرجي منه . لن احتفظ بك قوة وقسرا . بل أريد أن تقيمي فيه عن رضا وقبول . وأن تصبحي سيدة النساء والجواري ، وزهرة الحريم السلطاني العطرة . أريدك زوجة لا جارية ، وحرة لا أمة . فاذهبي الآن وفكري ، ونامي حتى تصبحي . واذا ما راق لك ما أعرضه عليك

الآن ، فاغتسلي غدا ، وتطيبي ، والبسي أفخر مافي القصر من ثياب وتعالي ! »

ــ وبعد ؟

ــ فعلت في اليوم التالي ما طلبه مني السلطان ، وذهبت اليه !

ثم تنهدت السلطانة ، ومسحت دمعة طفرت من عينها ، واستطردت قائلة :

ــ وأصبحت منذ ذلك اليوم زوجة السلطان المحبوبة ، وأقرب نسائه الى قلبه · وقد بقيت في كنفه الى اليوم الذي سقط فيه قتيلا بدسيسة من السلطان مصطفى الرابع ، الذي خلفه على العرش ، ولكنه لم يجلس عليه أكثر من سنة واحدة ، فحل محله في سنة ١٨٠٩ السلطان محمود الثاني ، بن السلطان عبد الحميد الاول ···

ــ وهو الجالس على العرش الآن ؟

ــ نعم ، ومحمود يحبني ويحترمني · وهو الذي أطلق على اسم «والدة سلطان » أو « السلطانة والدة » لانني سهرت على طفولته ، وأخذت بيده وهو صغير يخطو في العالم خطواته الاولى

ــ اذن ، ليس السلطان محمود ابنك كما يقولون ؟

ــ كلا · فقد ولد السلطان محمود في عام ١٧٨٥ ــ أي قبل وقوعي في أسر القرصان بخمسة أعوام · ولم أكن في يوم من الايام زوجة لأبيه عبد الحميد الاول ، الذي مات قبل مجيئي الى الآستانة بسنه ، أي في عام ١٧٨٩ · ولكن السلطان ، محمود الثاني ، يحبني كأمه ، ويدعوني أيضا « الوالدة » ، وهو يأخذ بنصائحي ، ولا يقدم على عمل الا بعد أن أبدى له فيه رأيي ، وهو يحب وطنك لانه وطني ، ويجيد لغة قومك لأنها لغة المرأة التي يعدها أمه !

ــ ألا تحنين الى أرض ذلك الوطن ؟

ــ أحن اليها ! وهل ينسى الانسان وطنه ؟ لكن الأقدار شاءت ان تقصيني عن تلك البلاد المحبوبة · انى أشبه شيء بشجيرة انتزعت من منبتها ، ونقلت الى ديار الغربة ، حيث زرعت تحت سماء غير سمائها ، وفي تربة غير تربتها ، فغرست أصولها في بطن الارض ، ونما جذعها ، فكبرت ، وأينعت ، وطرحت ثمارا ، وقضى عليها أن تجف وتموت في منبتها الثاني ! عد اذن الى فرنسا ، وأعد على مسامع من بقى من أسرتنا ماسمعته مني الآن · قل لهم : ان ايميه دي بوك سعيدة في مهجرها · قل لهم : انها هنا تقيم ، وانها ستظل في هذا القصر بجانب « ولدها » حتى يوافيها أجلها · والآن اذهب ، أسرع ، فهذا كل ماكنت أرغب في الافضاء به اليك · لقد هاجت في الشجون ، ولا أريد أن أدع للضعف سبيلا الى !

ــ دعيني اذن أقبل هذه اليد مرة أخرى ، كما لو كنت أقبل يد أمي ! وسوف أوافيك من هناك بأخبار الأسرة ···

ـ لا ۰۰۰ اياك أن تفعل هذا ! لقد دفنت نفسي في هذا القـــبر المذهب ، وقطعت مع الخارج كل علاقة ۰ انني سعيدة هنا ، سعيدة الى حد لا أتطلع معه الى ما هو فوق سعادتي ۰ ولربما حملت الى رســائلك ورسائل ذويك ما يحيي في ذكريات الماضي ، وينغص علي عيشي ، ويحملني على ندامة لا أريدها ۰ اذهب يا بني ۰ أرجو لك ولمن بقي من أهلي في فرنسا ،هناء كالذي أتمتع به الآن هنا !

فاكب الشاب على يدي قريبته يقبلهما ، مدفوعاً بعامل النسب نحو امرأة يجري في عروقها وعروقه دم واحد !

***

تلك هي قصة ايميهدي بوك « السلطانة والدة » كما كانوايسمونها، والتي تكهنت لهـا عرافة في صباها بأنهـا ستضع على جبينها تاج الملك ، فتحقق التكهن

عاد جيرار دي بوك الى وطنه ، وأطلع أسرته على السر العظيم ، فهاج القوم وماجوا ، وحاولوا ان يعيدوا بينهم وبين الســـلطانة « التركية » علاقات أبت هي الا قطعها ، فذهبت جهودهم أدراج الرياح ۰ ولما أعيتهم الحيل ، ركب البعض منهم متن البحار ، وسافروا الى الآستانة العلية ، وطلبوا المثول بين يدي تلك التي تحمل اسمهم ، والتي رفعتها الاقـــدار الى أرفع المراتب ۰

لكنهم فشلوا على صفاف البوسفور ، كما فشلوا على ضفاف السين۰ ولم تفتح أمامهم أبواب أرادت السلطانة أن تظل موصدة !

فعادوا الى وطنهم خائبين ، ولم يعيدوا الكرة من جديد ، وأســـدل الستار دون أن يعلم أحد ماذا حدث وراءه !

أرادت السلطانة التي كان الســـلطان محمود يدعوها « يا أمي » أن يخيم النسيان على بقية أيامها ، فكان لها ما أرادت

وماتت ايميه دي بوك دي ريفري « السلطانة والدة » زوجـــــة السلطان سليم الثالث ، في سنة ۱۸۱۷ في الحـــادية والاربعين من العمر !

***

أما جيرار دي بوك ، فقد دفعه ذلك السر الذي مزق عنه الحجاب ، الى العـــودة الى الآستانة ، حيث دخل في خدمة السلطان ، متطوعا في جيشـــه ، محاربا في صـــفوف الأتراك ۰ فشاءت الظروف أن يشـــترك في المعـــارك التي دارت رحاها في سورية والاناضول ، بين الجيوش التركية والجيوش المصرية ، في سنة ۱۸۳۲ ۰ فوقع أسيرا ، وعرض عليه المصريون أن يحارب في صفوفهم ، فرفض بلباقة قائلا : انه لا يسعه أن يحمل السلاح ضد قوم يعرف أن دم أسرته يسري في عروق سلاطينهم !

فأطلق المصريون سراحه ، وعاد الى وطنه على ظهر سفينة أقلعت من ميناء صيدا بلبنان ، في سنة ۱۸۳۳ ۰ ومات في فرنســـا بعد عودته ببضعة أعوام ۰

السلطانة صافناز

أحبها ورعاها بعنايته وهو « أمير »
وأهملهـــا وهو « سلطان » فآثرت
العزلة بعيدا عن الناس !



السلطانة

للرسام مانيه

دخلت والدة السلطان ، أو « والدة سلطان » على حسب لقبها بالتركية ، على ابنها عبد العزيز ، الجالس على عرش آل عثمان منذ عام ١٨٦١ ، خلفا لأخيه عبد المجيد ، فاسرع اليها ، وتناول يدها باحترام واجلال ، وقادها الى مقعد وثير ، فأجلسها عليه وقال :

ـ رجوتك بالمجيء الى يا والدتي العزيزة لكي أفضي اليك برغبة أريد تحقيقها بك ·

فوضعت الأم قبلة على جبين ولدها وقالت :

ـ انك سلطان البرين ، والسيد المطلق المتصرف يا بني فأى أمنية تلك التي تحتاج الى مساعدة أمك لتحقيقها ؟

ـ نعم · اعلم ان في استطاعتي الحصول على ما أريد دون أن يعترضني أحد ، لكنني أخضع للتقاليد · وانبيك الآن ما أرغب ·

ـ تكلم يا بني ·

ـ في العام الماضي ، أهدى الينا محمود بن عياد باشا التونسي ثلاث صبايا فاتنات من نساء قصره ، نلن حظوة في عيني ، واردت أن يعاملن في القصر معاملة خاصة ، فأمرت بوضعهن في حمايتك ، وطلبت اليك أخذهن تحت رعايتك ·

ـ نعم · والصبايا الثلاث ـ يلدز وناجية وصافناز ـ يقمن منذ ذلك الوقت معي ، ويتناولن طعامهن على مائدتي ·

ـ أماه ، أرغب في اتخاذ احداهن زوجة لي · فهي في نظري جديرة بأن تحمل لقب « سلطانة » اذا ما رزقت منها ولدا · وهذا ما أرجوه ··

ـ ومن السعيدة الحظ التي وقع عليها اختيارك ؟

ـ صافناز · انها أبرع الثلاث جمالا وافتكهن لحظا · خاطبيها واطلعيها على رغبتي هذه ·

ـ سيكون لك ما تريد يا بني !

***

أسرعت الأم الى الصبية الحسناء وقصت عليها ما حدث بينها وبين السلطان عبد العزيز ، وهنأتها على تلك الحظوة الخاصة ، وذلك العطف السامي ، ظنا منها أن الفتاة سترقص طربا ، وتقابل الخبر بفرح وحبور ·

لكن « صافناز » ألقت بنفسها على قدمي والدة السلطان ، وأجهشت بالبكاء ، وجعلت تندب سوء طالعها !

ـ لم أعرف والدي يا مولاتي ، لأن النخاسين اختطفوني طفلة من البلدة التي ولدت فيها ، بل انني لا أعلم هل أنا تركية ، أو شركسية ، أو رومية أو عربية ؟ وفي هذه السنة التي قضيتها في كنفك ، في هذا القصر ، ألفيت فيك حنانا أنساني ما عانيته في حياتي من مذلة وبؤس وشقاء ، نعم ان عطف مولاي السلطان ، ووقوع نظره على واختياري دون نساء الحرم زوجة له ، كل ذلك يقع في نفسي وقعا شديدا ، ويؤثر في تأثيرا عميقا ، لكنني لا أريد يا مولاتي ، كلا ، لا أريد أن أصير سلطانة ، بل أوثر البقاء وضيعة خاملة !

عبثا حاولت والدة السلطان أن تقنع الفتاة بالعدول عن عزمها ، فاضطرت في النهاية الى مجاراتها في رغبتها ، وانقاذها مما كانت تعتقده مصيبة كبيرة وبلاء عظيما !

فقالت للفتاة :

ـ لابد أن يكون في صدرك سر دفين تضمينه بين الضلوع يا ابنتي ، فهل لك أن تطلعيني عليه ، وأن تكاشفيني بحقيقة أمرك ؟ انني امرأة مثلك ، امرأة ذاقت في صباها ما تذوقينه الآن من مرارة وحسرة ، فقد جيء بي الى هذا القصر بالرغم مني ، لكنني خضعت لأحكام القدر ، وأذعنت لما كتب لي في صفحات الغيب ، فنسيت الماضي ، ورضيت بالحاضر ، وانتظرت صابرة ما يجيئني به المستقبل ، تكلمي يا ابنتي وقولي لي : أي سر ذلك الذي يحملك على الرفض ؟

فتنهدت صافناز ، وأجابت :

ـ لا تسأليني ... بل سلي الأمير عبد الحميد !

فانتفضت والدة السلطان وتمتمت :

ـ آه ! فهمت الآن !

***

كان الأمير عبد الحميد شابا جميلا ، يطوف بأرجاء القصر ، ويقضي لياليه في الحدائق الغناء ، لا تقلق باله شئون السلطنة ، ولا تعكر صفو راحته متاعب العرش .

كان في الثلاثين من عمره ، عند ما وقع نظره للمرة الأولى على الفتاة صافناز ، فعلق بها قلبه ، وعلق به قلبها ، وتوثقت بين الاثنين عرى حب شديد خالص ، وجعل كل منهما يمني النفس بزواج قريب يحمل معه السعادة والهناء .

لكن صافناز كانت من نساء السلطان وجواريه ، وليس لعبد الحميد أن يتطلع الى حرم عمه ، ويتخطى حدودا لا تسمح له التقاليد بتخطيها .

وعندما جاءته والدة السلطان ، سائلة مستفهمة ، أفضى اليهـــا بسره ، وأطلعها على ما يكنه قلبه من حب وهيـام لتلك الصبية الحسناء وما يعلقه من أمل على تحقيق أمنيته باتخاذ صافناز زوجة له ٠

أدركت أم السلطان أنهـــا أمام عاطفة قوية متبادلة بين الاثنين ٠ وحملها حنوها على الميل الى مساعدة عبد الحميد دون ابنها ٠ فقالت له :

ــ ان عمـــك يا بنى جالس على العرش ، وهو صـــاحب سلطة واقتدار ، له ما يريد ويملك ما يشاء ٠ فانعم بالا ٠ سأسعى الى التأثير عليه ، فأجعله يعدل عن رغبته ، وتبقى صافناز حرة طليقة ، فتتخذهـا أنت زوجة لك !

ــ سأحفظ لك ما حييت هذا الجميل ٠ لقد أحببت صافناز حبـا عظيما ، تضمحل امامه كل عاطفة ، ولو قدر على أن أفقد أمل الزواج بها ، واصدم فى هذا الحب العميق ، لقضيت حياتى شقيا تعسا حزينا ٠

فوعدته خيرا ، وقطعت على نفسها عهدا بأن تحقق ذلك الحلم وتعقد ذلك الزواج ٠

***

صدق السلطان عبد العزيز ما قصـــته عليه أمه من أمر صافناز ، واعتقد ان الفتاة مريضة ، وأن الأطباء أشـــاروا عليها بالراحة التامة ، والابتعاد عن الاستانة ، والالتجاء الى المناطق الجبلية طلبـــا للسكون والشفاء ٠

وذهبت الام الى أبعد من ذلك ، وجعلت ابنها السلطان يعتقد أيضا أن الزواج يقضى على حياة صافناز ، وأن دخول رجل عليها سوف يكون بمثابة دخولها القبر !

لم يخطر ببال عبد العزيز أن « والدة سلطان » تخدعه ، فعدل عن عزمه ، ورضى باتخاذ يلدز زوجة له ، بدلا من اختها صافناز ٠

وهكذا كان ٠٠٠

وبعد أيام ، جاءت والدة الســـلطان الى عبد العزيز ، وهى مكفهرة الوجه مقطبة الجبين ، وقالت :

ــ اننى أحمل اليك اليوم يا بنى خبرا ليس فيه ما يسر ويفرح ٠ لقد ماتت صـــافناز ، ودفنت فى حديقة المنزل الذى كانت تسكنه ، فى جبال الأناضول !

***

اما الحقيقة فكانت غير ما ذكرت والدة السلطان ٠ وفي الوقت الذي كان عبد العزيز يعتقد فيه أن الصبية أصبحت فى عداد الأموات ، كانت صافناز حية خالصة لحبيبها الأول ٠

مهدت المرأة للاثنين سبيل الزواج ، وصـــارت تنظر بعين العطف

والرعاية الى ذلك الحب المترعرع ، فأحاطته بسياج من الكتمان ، وظل أمر الحبيبين يجهله الجميع ، دون أن يعلم أحد فى الاستانة كلها أن الفتـــاة « الميتة » لا تزال على قيد الحياة ، وأنها أصبحت زوجة للأمير عبد الحميد !

أربع سنوات قضاها الزوجان فى السعادة والهناء · فرزقا ثلاثة أبناء هم ثمرة الحب الأول ، وظل عبد الحميد الى آخر أيامه يذكر بالحسرة والحنان تلك الساعات الحلوة اللذيذة التى مرت على شبابه مرور الطيف !

***

فى سنة ١٨٧٦ ، مات السلطان عبد العزيز مقتولا ، وجلس على العرش بعده ابن أخيه مراد ؛ باسم مراد الخامس · وهو أخو عبد الحميد الأكبر وابن السلطان عبد المجيد ·

ومنذ ذلك الوقت ، جعل الامير يتطلع الى أريكة الملك ، ويوجه كل عنايته الى تسنم ذلك العرش ، الذى لا يليق له رجل ضعيف الارادة خائر النفس كالسلطان مراد ·

وفى ثلاثة شهور ، أثبت عبد الحميد أنه جدير بالملك ، وأن انقاذ السلطنة من الخطر الداهم الذى يكتنفها لن يتم الا على يده ، فاكتسب محبة رجال البلاط واقطاب البلاد ، وفى شهر أغسطس ١٨٧٦ ، كان الأمير عبد الحميد جالسا على العرش ، ونودى به سلطانا باسم عبد الحميد الثانى ·

وبدلت الأقدار أحوالا بأحوال وأشخاصا بأشخاص !

تقلد عبد الحميد « سيف عثمان » فى حفلة رائعة ، أقيمت فى جامع أيوب بالاستانة ، فى السابع من شهر سبتمبر سنة ١٨٧٦ ·

ومنذ ذلك اليوم ، عادت صافناز الميتة الى الحياة جهارا ، وحملت لقب « سلطانة » عملا بالقوانين واتباعا للتقاليد ·

وبدلت الاقدار أيضا قلوبا بقلوب وشعورا بشعور !

كان عبد الحميد « الأمير » يحب زوجته ويخلص لها فى حبه · لكن عبد الحميد « السلطان » لم يكن ليجد من وقته متســـعا ، بين المكايد والدسائس ومتاعب الملك ، للالتفات الى تلك المرأة التى أحبها الحب العظيم

ثم ان نيران الحروب والثورات ، وقد اندلعت ألسنتها فى أطراف السلطنة ، كانت تسترعى أنظار الرجل وتتطلب اهتمامه ، فأخمدت فى صدره من جراء ذلك نيران الحب القديم ·

وظل عبد الحميد الثانى يحوط حبيبته الأولى ـ السلطانة صافناز ـ بالعطف والعناية ، لكنه كان يفعل ذلك مدفوعا بعاطفة الاحترام لزوجته ، لا بعامل الحب والهيام ···

كان فى الرابعة والثلاثين من عمره عندما قبض بيده على صولجان الملك · ومنذ ذلك الوقت ، عزم عبد الحميد على خنق ما يتلاطم فى صدره

من شعور ، ويهيج فيه من عواطف : أراد أن يكون سلطانا قبل كل شيء. والاحتفاظ بالسلطنة يقضي عليه بأن يطرح جانبا كل عاطفة من شأنها أن تنسيه واجبه نحو العرش !

والحب عاطفة من هذا النوع !

لقد بلغ غرامه بصافناز مبلغا عظيما ، وهام بها هياما وظل لها مخلصا وفيا في السنوات الأربع التي قضاها معها ، بعيدا عن أعين الناس ونواظر الرقباء .

لكن غرامه بالعرش ، وهيامه بالسلطنة ، قضيا على تلك الحياة الهنيئة ، وبددا ذلك الحلم الجميل ، وصار الواجب يحتم على عبد الحميد أن يكون سلطانا قبل أن يكون رجلا ...

دخلت عليه صافناز ذات يوم في خلوته ، وانطرحت على قدميه ، وجعلت تذكره بذلك الحب الذي كان الشابان يستمدان منه الحياة .

قالت له :

ـ أنسيت يا عبد الحميد أنني رفضت طلب عمك ، وآثرت الزواج بك على الزواج به ؟ لقد فعلت ذلك لأنني كنت أحبك .

فأخذ السلطان رأس زوجته بين يديه ، وضمه الى صدره ، وقال بصوت متهدج :

ـ أعلم ذلك يا حبيبتي . وكنت أنظر الى الحب نظرك اليه . لكن الأقدار شاءت أن أنهج في حياتي منهجا آخر . لقد أحببتك . ولا أزال أحبك . وسوف تظلين في هذا القصر وبين نسائه المختارة المدللة ، ولكن واجبا أسمى من واجب الحب يدعوني اليه . بالأمس كنت لك وحدك ، أما اليوم فانني للعرش أولا ولك (ثانيا) لو استسلمت بعد الآن للحب استسلامي له من قبل ، لفقدت العرش وأضعت السلطنة . ولن يقال ان عبد الحميد فقد عرشه وأضاع سلطنته من أجل النساء ! سأعطيك من وقتي ما يتيسر . أما المال فلك منه ما تريدين . وقصور الآستانة أمامك ، أنت فيها جميعها الآمرة الناهية !

فرفعت السلطانة صافناز رأسها ، ونظرت الى الحبيب بعينين ترقرقت فيهما الدموع ، وقالت :

ـ ان قصور الآستانة جميعها ، وخزائن أموال السلطنة كلها ، لا تساوي في نظري بالنسبة اليك شيئا .

***

طلبت السلطانة من زوجها أن يمن عليها بالطلاق كما من عليها من قبل بالزواج . فأجابها الى طلبها ، وأهدى اليها قصرا على شاطىء البحر الأسود ، حيث أقامت مدة من الزمن مع رجل آخر ، اتخذته زوجا لها بموافقة السلطان ، اعتقادا منها أن هذا الزواج الثاني سينسيها الزواج الأول .

لكن الزمن ظل عابسا فى وجهها ، فادركت أن السعادة قد ولت ولن تعود اليها ..

وأمعن ذلك الحظ السيء فى تعذيبها . فمـــات زوجها الثانى ، والتهمت النيران قصرها !

بلغ عبد الحميد الخبر ، وكان فى ذلك الوقت فى أوج مجده ، فارسل يعرض على المرأة التى احبهـا ان ترجع الى القصر ، وتقيم بين نسـاء الحرم معززة مكرمة .

لكنها رفضت ...

فأنعم عليها بقصر آخر فى « جامليجة » وامر لها بخمسين (ذهبـا) مرتبا شهريا .

وهناك ، فى عزلة ووحدة ، قضت السلطانة صافتاز بقية حياتها ، تستمد القوة من ذكريات الماضى ، وتنظر تارة قلقة ، وتارة مذعورة ، الى الغيوم المتلبدة فى فضاء السياسة ، والأمواج المتلاطمة حول العرش ، وتسمع من بعيد هزيم الرياح الهوجاء ، المنذرة بعظائم الأمور ! ..

لكن الموت وافاها فى ذلك القصر الذى استحال لها قبرا ، قبل أن تشاهد هبوب العاصفة ، وزعزعة العرش ، وسقوط الرجل الذى أحبته ، وموته فى قصر منعزل ، سجينا مثلها !

الجارية الأرمنية

كان السلطان عبد الحميد الثاني
يكتب اسمه على لوحة من الخشب
برصاص المسدس !



الحريم فى قصور السلاطين
« عن لوحة زيتية »

نزحت الأسرة الأرمنية من جبال القوقاز واستوطنت مدينة ارضروم، حيث نشأ أجدادها . وكان كبيرها «شاهن افديكيان» يتعاطى بيع الصوف وتجارة الأغنام ...

وماتت زوجته وهي دون الثلاثين من العمر . فظل يسهر وحده على ابنتيه ويعنى بتربيتهما .

كان يضطر الى التنقل في المزارع والجبال ، بحكم عمله ، فتبقى الطفلتان في البيت المتواضع ، في حراسة خادمة عجوز أمينة .

كان الأرمن في ذلك العهد تحت رحمة الاتراك ، لا تمر سنة دون أن تنزل بهم أنواع الاضطهاد والارهاق .

حدث مرة أن وقع خلاف بين تاجر الاغنام وبعض الموظفين ، فاضطر المسكين الى الرحيل عن بلدته مع عائلته ، خوفا من حدوث ما لا تحمد عقباه ، وهربا من انتقام خصومه وبطشهم به وبعائلته .

لكنه فر من شر للوقوع في أسوأ منه . فقد هاجمه في الطريق لصوص قطاع الطرق وذبحوه مع الخادمة وحملوا الطفلتين الى مغاورهم ثم القوهما بين يدي « أفرام باشا » تاجر الرقيق مقابل مبلغ من المال .

وباعهما افرام باشا في الأستانة ، فاشتراهما القائد العسكري « شاكر احمد باشا » وقدمهما هدية لمولاه السلطان عبد الحميد الثاني في عيد ذكرى جلوسه ، سنة ١٨٨٥ ، وكانتا قد أصبحتا صبيتين على جانب كبير من الجمال .

***

كان عبد الحميد سريع الانفعال كثير الشكوك ، يرتاب في كل حركة تبدو من حاشيته ، نزاعا الى سفك الدم، مخافة أن يهدر دمه ، متفننا في ازهاق الارواح محافظة على حياته .

لكنه كان كبقية الرجال ذا قلب حساس يخفق للجمال ، وصدر تختلج فيه لواعج الغرام .

ولم ينج ذلك السلطان القابض على زمام مملكته المترامية الاطراف من الوقوع تحت سلطان الحب الذى لا مرد لارادته ، فانقاد لنداء القلب صاغرا ذليلا ، ومال عنقه تحت ذلك النير القاهر ، كما انقادت الاقوام ومالت أعناقها تحت نير عبد الحميد صاغرة ذليلة .

أحب سجين يلدز صغرى الفتاتين · وعلق بها فؤاده وتضــاعف بسببها أرقه · وأحس بأن هذه الأرمنية الحسناء سوف تلعب في حياته دورا غير الذي تلعبه المئات من السراري والجواري ، اللواتي كانت تعج بهن قصوره ·

أرسل في طلبها ذات يوم ، فدخلت عليه في مخدعه مع « جعفراغا » رئيس الخصيان ، وكان عند السلطان أحد كتبة أسراره الضابط « علي فؤاد بك » ·

نظر اليها مقبلة فالتفت الى الضابط وقال :

ـ دعني وانصرف يا علي بك · لكنني أسمح لك بأن تمتع عينيك بالنظر الى هذا الوجه المنير · فتذكر في المستقبل أنك رأيت أجمل سرية في قصر عبد الحميد !

نهض الضابطوحدق بصره وهوخارج الى تلك الفاتنةالتي فاقجمالها كل جمال وسما بهاؤها على كل بهاء · وياليته لم يرفع الطرف ولم ينظر !

فقد أخذ لساعته بذلك الحسن المفرط · وشعر بأن سهما حادا قد انطلق من مقلة الفتاة وأصاب فؤاده في الصميم ·

كان قلب الضابط خليا فخرج من لدن السلطان عاشقا !

وجلست الحسناء أمام عبد الحميد وعلى موطىء قدميه ، فجعل يداعب بشرتها الناصعة البيــاض ، ويعبث بجدائل شعرها ، ويبثها مكنونات صدره ويكشف لها عن أعماقه :

ـ انك تشبهين « نعمت » الفتاة التركية التي كنت أحبها وأغدق عليها النعم ، والتي قصفت يد المنون غصن شبابها رطبا · فدعيني أطلق عليك هذا الاسم احياء لذكرى الماضي ·

ـ افعل ما يحلو لك يا مولاي · فأنت السيد المطاع !

ـ اذن يا نعمت ، أريد أن تأتيني كل ليلة في مثل هذه الساعة ، فترسلي شعاع الفرح في ظلام حياتي ، وتغريد البلابل في السكون الذي يكتنفني !

ـ ساجيء يا مولاي !

ـ أليس لك رجاء تفضين به الي ؟

ـ لدي رجاء لو استجابه مولاي لجعلني سعيدة شاكرة · ولحفظت له من أجله أحسن جميل !

ـ أي رجاء هذا ؟

ـتقيم في هذا القصر أخت ليس لي سواها وليس لها سواي ·فهل يأمر مولاي بأن تعامل بين النساء كما أعامل أنا بينهن ؟

ـ أجل

وتناولت الفتاة طرف الرداء السلطاني وقبلته ٠

***

ظلت « نعمت » مدة من الزمن تنعم بحب السلطان ٠ وقد جمعت هي وأختها من الجواهر والحلي أكداسا لا تقدر بثمن

لكنهما كانتا تحنان الى وطنهما ، الى الربوع التي لعبتا فيها صغيرتين ، الى الجبال التي طالما طافتا في وعرها وهضابها ، الى أبناء قومهما الذين لا يعرفون من أمرهما شيئاً والذين كانوا يعتقدون أنهما قد أصبحتا في عداد الاموات ٠

كاشفت محظية السلطان سيدها ذات ليلة برغبتها في السفر الى ذلك الوطن ٠ وأقسمت له أنها ستعود دون أن تفكر في الهرب

لكنه رفض السماح لها بقضاء رغبتها ٠ وداخلته الريبة في سلوكها، وجعل منذ ذلك الوقت يضيق عليها الخناق ويضاعف المراقبة ويبث الاعين في أثرها

وكانت الفتاة قد زجرت الضابط « علي فؤاد بك » الذي راودها مرارا عن نفسها ، وأعرضت عنه وأنبته على جرأته وهـــددته برفع شكواها الى السلطان ان لم يرجع عن غيه ويكف عن ملاحقتها

فحمل الضابط موجدة على المسكينة ، وأضمر لها الشر والأذى وبات يرقب الفرصة للايقاع بها والانتقام منها

وهل من عدو أشد خطرا من العاشق اذا ما رام انتقاما بعد الصد والهجران ؟

علم الضابط علي فؤاد بأن « نعمت» تقدمت الى عبد الحميد برجاء وأنه لم يجبها اليه ، فعول على اقتناص هذا الظرف الملائم وضرب الحسناءالمعتصمة ضربة تصيبها في صميم حياتها

واغتنم فرصة وجوده في اليوم التالي في حضرة مولاه ، فاستأذن في الكلام مدعيا أن لديه أمرا يرغب في اطلاع السلطان عليه ، وأن ذلك الأمر يتعلق بسلامة الدولة والجالس على العرش

أذن له عبد الحميد بالكلام فطفق الضابط المفترى يقص على مولاه خبر مؤامرة وهمية يدبرها قوم من الأرمن لاغتياله ٠ ثم ختم حديثه قائلا :

ـ لقد وقع اختيار أعداء جلالتكم على امرأة من نساء القصر لتنفيذ خطتهم الجهنمية والاقدام على فعلتهم الشنعاء !

فارتعد عبد الحميد وقال :

ـ اي امرأة هذه ؟

ونظر الى كاتب أسراره لاهثا مستفهما ٠ فسكت الرجل كأنه يتردد في اماطة اللثام عن سر هائل ٠ لكن السلطان انتهره صائحا :

ـ آمرك أن تتكلم يا علي وأن تفضي الي بكل ما تعلمه !

فقال الواشي :
ان المرأة التي أقصدها هي اليوم أحب السراري الى جلالتكم !

ـ أفصح !

ـ هي نعمت الأرمنية !

فدوى صوت عبد الحميد في أرجاء القاعة مناديا :

ـ جعفر اغا ... جعفر اغا ...

***

ودخلت الارمنيتان على السلطان في تلك الليلة ، اجابة لطلبه ، وكان جالسا على مقعد من المخمل الأسود ، أمام نافذة تطل على حديقة القصر، مسندا ذراعه اليمنى على وسادة خضراء ، باسطا ذراعه اليسرى على حافة النافذة ...

نظر الى المرأتين نظرة طويلة كثيرة المعاني ، ثم أشار الى رئيس الخصيان بأن يبتعد ويقف بالباب حارسا

والتفت الى نعمت وأختها وقال :

ـ نعمت ، لدى رجاء خاص أرجو أن تجيبيني اليه في الحال ، وبعد ذلك أعـــدك بأن أطلق سراحـــك من هـــذا القصر ، وابعث بك الى حيث تشائين !

ـ مرني يا مولاى فانا رهن اشارتك !

ـ ارقصي !

فنظرت اليه نعمت حيرى مدهوشة

ـ قلت لك ارقصي ، لقد قيل لي انكما ـ أنت واختك ـ تحسنان الرقص ، وبي رغبة شديدة الى رؤيتكما ترقصان !

تبـــادلت الأختان النظرات ، وما كانتـــا يوما من الايام تحسنان الرقص كما ادعى السلطان ، ولكن لابد لهما من اجابته الى طلبه

فرقصت نعمت ، وفعلت أختها مثلها فرقصت ، وجعل عبد الحميد ينظر اليهما هادئا صامتا ، ثم قال لنعمت :

ـ أما قيل لك يا نعمت انني أحسن اطلاق النار ايما احسان ، وانني لا أخطىء المرمى برصاص المسدس ؟

فزادت دهشـة نعمت لهذا السؤال واجابت :

ـ قيل لي ذلك يا مولاى ، وقيل لي أيضا : انك تكتب اسمك الكريم على لوحة خشبية برصاص المسدس !

ـ لقد صدقوا . ضعي اذن أصبعك على ثديك الايسر ، ولا تتوقفي عن الرقص ... أجل ... هكذا .. ألا تشعرين الآن بخفقان قلبك وراء هذا الثدى ؟ .. ما قولك اذا اوقفت هذا الخفقان برصاصة مسدس ؟ ..

فارتعدت المسكينة خوفا وضغطت بيدها على ثديها

ودوى في القاعة صوت طلق ناري ..

وسقطت نعمت على الارض جثة هامدة . وقد اخترقت الرصاصة قلبها ووضعت حدا لخفقانه .. ونفذ عبد الحميد وعيده !

والقيت الجثة في البوسفور بعد أن اثقل عنقها بحجر .. ونسي السلطان أو تناسى تلك الساعات الحلوة التي قضاها مع نعمت الارمنية الحسناء التي أحبها . والتي أرداها لمجرد وشاية كاذبة ، مضحيا بغرامه في سبيل حياته . وما كانت المسكينة تفكر يوما في الاعتداء على تلك الحياة !

* * *

وظلت أختها الكبيرة في القصر منبوذة مهملة

وظل الضابط على فؤاد في القصر أيضا . وقد نال حظوة في عيني مولاه الذي اعتقد فيه الامانة والاخلاص

لكن الضمير المؤنب لم يرحم ذلك الواشي الذي بات يتألم ندما على ما بدر منه .

ولم يطق صبرا على كتمان السر دفينا في صدره ، فباح لاخت ضحيته بكل شيء . وطلب اليها أن تأمره بعمل يقدم عليه تكفيرا عن ذنبه واساءته .

فقالت له الاخت الحزينة :

ـ انقذني من الجحيم الذي أعيش فيه هنا . وليسامحك الله ويغفر لك ما فات !

وبوساطة ذلك العاشق الذي دفعه حبه الى الاجرام ، تمكنت الاسيرة من الفرار من يلدز ، والعودة الى بلادها حاملة معها مااستطاعت حمله من حلي ونقود .

وكتمت أمرها عن الناس . الى أن حدث الانقلاب الذي اطاح بعبد الحميد سنة ١٩٠٨ . فاطلعت المرأة قومها على قصتها وقصة أختها ..

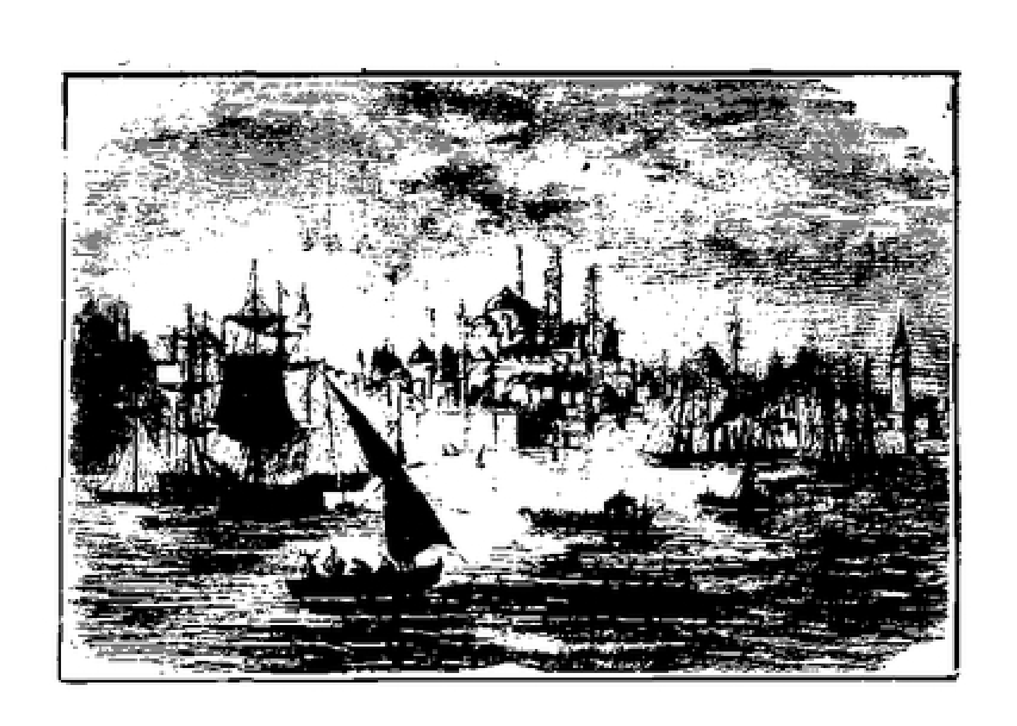
ومرت أعوام ...

ونكبت المرأة من جديد في سن الكهولة ، خلال الحرب العالمية التي نشبت في عام ١٩١٤ ، كما نكبت من قبل في صباها على ايدي اللصوص والنخاسين . فهامت على وجهها في البراري والقفار ..

وصلت الى بادية الشام فالتقطها العربان والتحقت بقافلة من اللاجئين الهاربين ، الذين شاء حسن حظهم أن يلاقوا الامان في بلدة العقبة ، خلال الثورة العربية . فقد انتقلوا من العقبة الى السويس ، وكانت الجارية الارمنية أخت نعمت معهم . فقضت البقية الباقية من حياتها بالقاهرة .

نديم أغا العاشق

مكايد ، ودسائس ، ووشايات ،
ورصاص يلعلع ، وجثث تتساقط !
تلك كانت ناحية من نواحي الحياة
في قصور السلاطين !



الآستانة فى أواخر القرن الماضى

كان نديم اغا عاشقا ، بالرغم من أنه لم يكن غير نصف رجل !

شاءت الاقدار أن يولد المسكين مطبوعا بطابع النحس ، وان تعبس السعادة في وجهه وتوليه ظهرها . وشاءت ارادة أسياد غلاظ قساة أن يكون نديم أغا واحدا من خصيان القصور السلطانية . ولكن لاولئك الخصيان المساكين ـ خلافا لما يعتقد الناس ـ عروقا تنبض ، وقلوبا تخفق ، وصدورا قد تختلج فيهـا عاطفة الحب والغـرام كغيرها من الصدور !

كان الخصي نديم أغا يخلص لمولاه الخـدمة ويتفانى في سبيـل مرضاته ، ويعتقد أن السلطان عبد الحميد عليه حق الحياة والموت ، فهو ولي نعمته ، وصاحب الفضل عليه . .

وكان عبـد الحميـد يحبه ويخصـه بعنـايته ويوصي به خادمه ووصيفه جعفر اغا خيرا على الدوام

وكان كلما جلس الى المائدة ينادي « نديم أغا » ويعهـد اليـه بخدمته وتقديم الماء اليه

لكن الامر الذي كان الخصي يعده نعمة تفوق النعم جميعهـا ، وتعطفا تضمحل امامه الخيرات والهدايا . هو اعتماد السلطان عليه في حمل ارادته السنية كل ليلة الى دائرة الحرم

كان نديم أغا يقوم بتلك المهمة الدقيقة خير قيام دون أن تفـارق الابتسـامة ثغره الافلج ، فتحيط به الجواري والسراري كلما رأينـه مقبلا : هذه تداعبه وتلك تدغدغه ، وهو يتنقل بينهن كالديك بين الدجاج . . لكنه ديك يفتقر الى أظهر مزايا الديوك فلا خطر منه عليهن !

وبالرغم من ذلك كله ، فان الديك المسكين « المهيض الجنـاح » كان عاشقا مغرما !

***

في احدى ليالي شتاء سنة ١٨٩٧ وقع نظره للمرة الاولى على الفتاة «زبرجد» القادة السوداء التي قادها الى قصر يلدز تاجر الرقيق « عثمان بك الكردي » وكان ثمنها مائة من القطع الذهبية الرنانة !

لم تكن الجواري الزنجيات يساوين في ذلك الوقت ثمنـا باهظا كهذا ، اذ ان النخاس تاجر الرقيق أفرام باشا كان يجلب منهن العشرات

تلو العشرات .. لكن تلك الجارية السوداء التى كانت تحمل اسما ينطبق على المسمى انطباقا محكما ، كانت فى تقاطيع وجهها وتناسب اعضاء جسمها ولمعان عينيها ونعومة بشرتها وامتشاق قامتها آية من آيات الجمال الكامل الجذاب ، فنالت حظوة فى عينى عبد الحميد ، وأمر خصيانه بأن يحلوها فى حرمه محلا ممتازا ، وان يرعوها بعنايتهم دون سواها من النساء ..

شعر نديم اغا فى بادىء الامر بنوع من الفخر عندما رأى تلك الزنجية ـ بنت جلدته ـ تعامل بين ساكنات الحرم من سود وبيض معاملة خاصة . فصار يعطف عليها ويسابق زملاءه فى خدمتها

لكن ذلك العطف مالبث ان استحال غراما !

ان الحب يلج القلوب جميعها ، رفيعها ووضيعها ، ابيضها واسودها ، وعندما يصوب نباله الى الصدور لايفرق بين الرجال ، ولا يميز بين الاسياد والعبيد ، والكاملين والناقصين !

احب اذن نديم اغا الجارية السوداء وكاشفها بغرامه وجعل يبثها مافى اعماق فؤاده الجريح من لوعة وحسرة ، فقابلت الفتاة حبه بالمثل، وقصت عليه قصتها وكيف ان النخاسين الجناة اغاروا برجالهم على عشيرتها ، هناك فى ادغال افريقية وساقوها سبية اسيرة ، بعد ان قتلوا أهلها ، وشتتوا شمل قبيلتها ، واحرقوا أكواخ قريتها ..

وجدت العبدة الذليلة فى ذلك العبد الذليل أخا فى البؤس وشريكا فى الشقاء . وتوسمت فيه الامانة والاخلاص والحب الصادق. فاتخذته لها مؤتمنا ونجيا ، وتوثقت بين الاثنين العلاقات الى حد صار معه نديم اغا يغار عليها من الجميع ، الرجال والنساء ، ومن سيده ومولاه السلطان نفسه !

دخل يوما على دائرة الحرم ونادى صديقته وقال لها بصوت متهدج والعبرات تخنقه :

ـ أمرنى البادشاه أن أبلغك اليوم ارادته ، فهو يرغب اليك فى أن تغتسلى بالطيب والعطور ، وان ترتدى ذلك الثوب الاخضر الذى أمر لك بصنعه منذ أيام ، وتوافيه عند المساء !

قال هذا والقى بنفسه على مقعد وجعل يبكى وينتحب ..

فدنت منه الفتاة وسألته مدهوشة :

ـ وما الداعى الى هذه الدموع يانديم .. ليست هذه المرة الاولى التى يدعونى السلطان فيها الى موافاته ..؟

فنهض الاغا وقد صعد الدم الى رأسه ، وجذبها اليه بقسوة عنف ، وضمها الى صدره ، وطبع على ثغرها قبلة . ثم صاح بها وقد تغلب فيه الحيوان على الانسان !

ـ لن تذهبى الليلة اليه ! اوثر الف مرة أن يحل بى العقاب ، أن

اجلد ، أن اسجن في غياهب الاقبية ، ان يلقى بي في الماء الى حيتان البوسفور وقد أثقل عنقي بالحديد والرصاص ، نعم أوثر ان يرفعوني الى المشنقة ، ان يقتلوني شر قتلة ، على أن اتخيلك بعد اليوم في أحضان رجل آخر ، يتمتع بجمالك ويعبث بك !

ذعرت الفتاة وتولاها رعب شديد ، فحاولت أن تهدىء من حدته وأن تطفىء نار ثورانه ، لكنها لم تفلح ، اذ أن المسكين كان أقرب الى المجنون منه الى العاقل !

انه يحب .. لكن حبه مريض كسيح ..

قام بينه وبين الجارية جدل عنيف : هي تريد أن تصدع لارادة المولى وهو يحضها على العصيان !

وجاءت النساء على صوت الضوضاء ، واقبل أحد رفاق نديم يستفسر ما الخبر ..

ووقعت الفضيحة التي طالما سعت الفتاة زبرجد الى اجتنابها

ادرك الخصي الآخر ان في الامر سرا ، وان في استغلال الموقف منفعة وفائدة . فتوجه الى الباب عازما على الخروج لحمل الخبر الى مولاه السلطان !

لكن الجارية فطنت الى حيلته . فاسرعت اليه وارادت أن تحول بينه وبين الباب . فاعتقد نديم أغا انها تغتنم الفرصة للهرب منه والذهاب الى حيث تدعوها الارادة السنية . فتناول مسدسه واطلق منه رصاصة على معشوقته !

لكن يده المرتجفة اخطأت المرمى .. فسقط الزنجي الآخر صريعا وقد اخترقت الرصاصة صدره وأصابت منه مقتلا !

وعلا الصياح والعويل، فأفاق نديم أغا من سكرة هياجه واتضحت له حقيقة موقفه وفظاعة عمله !

وادرك انه هالك لا محالة !

***

كان السلطان عبدالحميد قد نزع عنه ثوبه الاسود ولبس قميصه الأبيض وجلس في سريره ، وجعل يصغي الى قراءة التقارير التي جاء يطالعه عليها رئيس الجواسيس ، وتحت وسادته زجاجة يستنشق منها من آن الى آخر ..

الاصغاء الى التقارير ، واستنشاق المنبهات : هذا ماكان يصنعه عبد الحميد في انتظار الحسناء التي اختارها لكي تحمل شعاعا الى حجرته المظلمة ، وتريه ثغرا باسما بعد أن رأى طول نهاره وجوها عابسة !

ـ اعد قراءة هذه الجملة ..

فأطاع رئيس الجواسيس وأعاد القراءة :

« دخلنا على أحمد بك .. فوجدناه جالسا يداعب قطه وبجانبه زوجته تضاحكه .. فأطلقنا عليه رصاصتين .. »

لكن الرجل توقف فجأة عن القراءة ونهض مذعورا ، ذلك لان الباب قد فتح بشدة. ودخل الحجرة مارد أسود وهو يصيح والمسدس بيده :

ــ مر بقتلى يامولاى فقد خنتك واذنبت !

وخر الرجل على وجهه وتناول حذاء السلطان وجعل يقبله ويردد .

ــ مر بقتلى يامولاى .. مر بقتلى ! ..

لكن مولاه كان قد اختفى !

ضغط عبد الحميد على زر وراء سريره ، ففتح باب سرى وخرج منه سلطان البرين وخاقان البحرين ، مرتعشا هاربا من وجه ذلك الزنجى الذى اقتحم حجرة نومه شاهرا مسدسه !

***

قبض على الاغا العاشق . وأصدر المفتى فتواه بوجوب قتله ، فعلقوه على المشنقة فى أحد الميادين العامة

وفى اليوم التالى ، أمر السلطان باستجواب النساء للاطلاع على دخائل ذلك السر ومعرفة حقيقة ماجرى فى دائرة الحرم وكيف قتل نديم أغا زميله ..

لكنهم لم يجدوا فى غرفة الفتاة غير جثة هامدة ..

رصاص فى الحريم

هل هناك قوة خفية ، مفرغة فى الحجارة الكريمة ، تجعلها مجلبـة للسعد أو للنحس ؟ المنطق يقول : لا . والواقع يجيب : نعم !



في شهر مايو سنة ١٩٤٧ ، نقلت البرقيات الخارجية خبرا مر به قراء الصحف مر الكرام على لغو الكلام . أما أنا ، فقد حملني ذلك النبأ على البحث في أكداس من المذكرات والاوراق الخاصة ، عن خبر دونته فيها منذ سنوات خلت ، وهو موضوع هذه « الصفحة المطوية » التي قد يكون في نشرها ما يحمل القارىء — مثلما حملني انا — على التفكير، للفائدة أو على الاقل للتسلية !

أما الخبر الذي نقلته البرقيات فهو يقول : ان السيدة الامريكية التي تملك الجوهرة الثمينة المعروفة باسم « هوب » أو باسم « الماسة الزرقاء » قد ماتت في ظروف غامضة ، وان هذه الماسة قد جلبت الشقاء والمحن لجميع الذين ملكوها منذ اكثر من ثلثمائة سنة !

ولا شك في أن القراء قد طالعوا اكثر من مرة شيئا او أشياء عن تلك الماسة الغريبة ، المعروفة باسم «هوب» والتي سرد كتاب عديدون تاريخها ، والحوادث التي وقعت لجميع الذين لمستها أيديهم ، وليس هنا مجال تكرار ماقاله أولئك الكتاب عن تلك الجوهرة المشئومة، ولكن ما أرويه هنا يؤيد ما ذهب اليه الناس فيما يروونه عنها

فالخبر المدون عندي في شهر مارس سنة ١٩٣٠ ، يمت الى « الماسة الزرقاء » بصلة وقد نقلته عن مذكرات « احمد رشيد بك » التي لا أعرف مصيرها منذ اليوم الذي رحل فيه ذلك الاديب التركي عن مصر ، الى اليونان والبلقان ، حيث انقطعت اخباره ، في عام ١٩٣٥

كان أحمد رشيد بك من الشبان الترك المثقفين ، وكان موظفا عند « نجيب باشا ملحمة » السياسي اللبناني الداهية ، الذي شغل أرفع المناصب في الدولة العثمانية، وكان من أقرب المقربين الى السلطان عبد الحميد الثاني

وفي سنة ١٩٠٩ عندما خلع عبد الحميد عن العرش ، بعد الانقلاب العثماني المشهور واعلان الدستور بسنتين ، هاجر أحمد رشيد بك ، وهو في الثامنة والعشرين من عمره ، فطاف أوروبا ، واستقر به المقام في مصر حيث عرفته في سنة ١٩٢٩ ، وهو كهل في الثامنة والاربعين

وكان شديد الحرص على ملف يحوي مذكراته الخاصة وطائفة كبيرة من الاخبار والنوادر والاسرار ، عن العهد الذي شاهده في الاستانة قبيل الانقلاب وخلاله وبعده

وقد نقلت عن تلك المذكرات بضع صفحات احتفظت بها ، وهاهي ذي واحدة منها شاءت المصادفات ، بعد مرور هذه المدة الطويلة على نقلها ، أن تجعل منها صفحة مطوية جديرة بأن تنشر من جديد . ولكنني أهملت - وهذا اهمال يؤسف له - نقل التاريخ الذي دونت فيه هذه الصفحة . غير أن الرواية التي ترويها تدل على أنها دونت بعد سنة ١٩٠٠ ، وهي السنة التي دخل فيها أحمد رشيد في خدمة الباشا ، وقبل سنة ١٩٠٧ وهي التي وقع فيها الانقلاب العثماني ..

وهذه ترجمة الصفحة من الفرنسية ، وهي اللغة التي كتب بها صديقي التركي مذكراته :

« سمعت اليوم قصة غريبة من الباشا وقد رواها أمامي لجماعة من أصدقائه العرب ، زاروه في قصره ، حيث تناولوا العشاء بدعوة منه ، وجلسوا يتسامرون حتى ساعة متأخرة من الليل .

والباشا من أكثر رجال هذا العهد اطلاعا على أسرار السرايات السلطانية وما يجري خلف جدرانها . ولكنه لايتكلم ولا يبوح بشيء من هذه الاسرار الا في مجالس تضم أصدقاء يثق بهم ويعلم انهم لن ينقلوا الاحاديث عن لسانه

« وقد قال لنا اليوم ان السلطان عبد الحميد قتل احدى محظياته بيده بأن اطلق عليها الرصاص من مسدسه ، فأصابتها ثلاث رصاصات من الاربع التي أطلقها ، وكانت الاصابات جميعها في الصدر . أما الرصاصة الرابعة فقد استقرت في مقعد بجوار الحائط المقابل للباب الذي كان السلطان واقفا على عتبته عندما أقدم على هذا العمل

« واسم المحظية القتيل « سلمى » وهي ذات حسن رائع ، وجمال فتان ، وقامة ممشوقة . تلقاها السلطان هدية من مصر ، وقد تكون مصرية وربما لا تكون . ويغلب على الظن انها شركسية من سراري الخديويين

« وتغار نساء القصر جميعا من سلمى ، لما لها من حظوة لدى السلطان . ولا شك في أن موتها سيبعث الفرح الى نفوسهن ، فتسعى كل منهن الى احتلال مكان المحظية الراحلة ..

« أما السبب الذي من أجله اقدم السلطان على اطلاق الرصاص على تلك المسكينة ، بعد أن كان يحلها في قلبه المحل الاول ، فلا يعلمه أحد !

« والذي عرفه المقربون ، ورواه لنا الباشا اليوم ، أن «سلمى» كانت في انتظار السلطان في حجرة يحتفظ فيها بجزء من حلي نسائه، ومجوهراته الخاصة ومجموعة الاحجار الكريمة التي يملكها ويقضي ساعات في ترتيبها وتصفيفها ، وقد دخل على محظيته في تلك الحجرة، فرآها جالسة على مخدع ، وأمامها صندوق صغير من الخشب المطعم بالعاج ، وقد تناولت منه جوهرة يقال : انها اثمن ما في المجموعة

من مجوهرات . فما كان من السلطان الا أن تناول مسدسه من جيبه وأفرغ رصاصه في صدر المرأة ، فخرت على المخدع وقد سالت منها الدماء فغمرته ولطخت الجواهر بلونها القانى

« هذا ما حدث في السراى . وعندما تناقل الاخصاء والمقربون من السلطان هذا النبأ . ذكر بعضهم أن الجوهرة التى كانت في يد المحظية هي « الماسة الزرقاء » التى اشتراها السلطان أخيرا والتى تعد أفخر ماسة عرفت الى الآن ، وقد كلفته مبلغا هائلا من المال ، وتلك الماسة الثمينة قد جلبت الشؤم والشقاء على جميع الذين اشتروها ، فكانوا يلاقون حتفهم على اثر شرائها . ثم يسرعون الى التخلص منها !

« فهل جلبت « الماسة الزرقاء » الشؤم والشقاء لمحظية السلطان .. لأنها لمستها بيدها ؟ »

***

هذا مادونه أحمد رشيد بك في مذكراته نقلا عن رواية عرفها « الباشوات » في سراى عبد الحميد

وفى سنة ١٩٠٩ . خلع السلطان عن العرش وأرسل الى السجن . والانباء التى تناقلتها البرقيات في سنة ١٩٤٧ تقول : ان « الماسة الزرقاء » المعروفة باسم « هوب » وهو اسم أحد الذين كانت فيحوزتهم في وقت من الاوقات . كانت شؤما على العظماء الذين اشتروها على كر العصور ومن بينهم السلطان عبد الحميد !

فاذا صح ما يروى من أن بعض الاحجار الكريمة فيها قوة خفية مودعة في جوفها ، تجلب السعد أو النحس ، واذا كانت الماسةالمعروفة باسم « هوب » هي ذاتها الماسة المعروفة باسم « الماسة الزرقاء » فان هذه الجوهرة الثمينة تكون قد جلبت الشر للمحظية الجميلة في قصر عبد الحميد ، ثم لعبد الحميد الذى خلعه رجال تركيا الفتاة عن العرش في الوقت الذى كانت الماسة المشئومة لاتزال في حوزته ؟

الرؤيـــا

لعبت المـــرأة دورها واختفت ،
وما أكثر الأدوار التى تلعبها النســـاء
فى تقويض دعائم الدول !



أنور باشـــا

من زعماء الانقلاب الذى أسفر عن خلع

السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨

أرجو أن تغلق الابواب يادولة الوزير وان تمنع الناس عنها . ان ما أود الافضاء به اليك من الخطورة بمكان !

ـ صدقت ياسيدى مادام الامر كذلك . ان للجدران آذانا تسمع وعيونا ترى . ثم اننا فى قصر يلديز ، ينبغى لنا الا ننسى ذلك !

ونهض « أبو الهدى » من مجلسه مسرعا نحو باب الحجرة ، وبعد ان افهم الحارس أن الدخول غير مباح لاحد . عاد الى محدثه الضابط النمساوى « ستيبسل » وقال :

ـ لقد خلا لنا المكان ياسيدى .. تكلم ..

ـ جئتك فى حاجة لابد لك من قضائها : انى أحمل اليك رسالة من صاحب الجلالة الامبراطور ، يلح فيها عليك بالقبول ويرضى بالشروط التى تمليها علينا ..

ـ حسن جدا .. ان امبراطور النمسا صديق قديم ، تربطنى به أواصر المحبة والاخلاص ، ويعز على أن ارفض له طلبا . ولكن ، هل قبلتم الثمن الذى وضعته للخدمة التى تطلبونها منى ؟

ـ قبلنا ! ..

ـ أين المرأة اذن ؟

ـ فى الفندق

ـ على بها ، واحمل معك غدا التحويل بالمبلغ على أحد المصارف الانكليزية ..

ـ سأفعل ..

***

وهكذا تم الاتفاق بين رسول النمساويين وأبى الهدى الصيادى ـ نديم عبد الحميد الثانى ونجيه ومؤتمنه ـ على ادخال السيدة « سوفى مثنر » فى حرم الرجل . والادعاء امام السلطان انها الزوجة الجديدة التى وقع عليها اختيار ابى الهدى !

***

كانت سوفى مثنر هذه راقصة متهتكة . طافت فى بيوت الدعارة

واماكن الفجور في النمسا ، تعرض محاسنها للبيع والشراء كما تعرض السلع في الاسواق ..

ساعدها الحظ وابتسمت لها الاقدار ، فتقربت من رجال البلاط النمساوى الذين توسموا فيها المكر والخداع ، فقرروا فيما بينهم ارسالها الى يلدز للتجسس على السلطان وحاشيته

وكانت النمسا في ذلك العهد تنافس روسيا في التوسع من ناحية البلقان ، وبسط النفوذ على اطراف السلطنة العثمانية ، محاولة أن تستميل اليها الجالس على عرش آل عثمان ، عبد الحميد الثانى « الرجل المريض » كما كانوا يسمونه

لكن ذلك الرجل المريض كان على جانب عظيم من الفطنة والذكاء والدهاء ، يدرك ما ينصبه له أعداؤه من حبائل ويكيدون له من مكايد، فيلعب بهم جميعا ويضحك منهم جميعا ! ..

حاولوا كثيرا أن يسيطروا عليه بالنساء ، لكن السلطان لم يكن من أولئك الرجال الذين يستسلمون استسلاما أعمى لنشوة الغرام ويسكرهم الحب .. نعم انه كان يميل الى « الجنس اللطيف » ولكنه، بالرغم من أن قصوره كانت تغص بالسرارى وتعج بالجوارى ، لم يفقد عقله بسببهن !

كانت أعصابه تعبة وقواه منهوكة ، وكان اذا ما اراد ان يذوق طعم الراحة يعمد الى العقاقير والجواهر المنبهة ، يقاوم بها عبء السنين ووطأة الامراض

لكنه كان ذا اعتقاد راسخ بالخرافات ، مولعا الى حد بعيد باستطلاع الغيب وقراءة الكف ، مؤمنا بتكهنات السحرة والمنجمين ، دائم الرغبة في محادثة الارواح وسؤالها عما يكنه له المستقبل في طياته وما يسطره له القدر في صفحاته !

وكان « ابو الهدى » يذكى في نفس السلطان هذه الرغبة ويزيد ذلك الاعتقاد رسوخا ، ويثبت له بمختلف البراهين والاساليب أن للاحلام علاقة بالحياة ، وأن أرواح الابرار والاشرار تحوم ليلا في مساكن الاحياء من الناس ، وتفضى اليهم بما يرغبون في معرفته من ماض وحاضر وآت ..

وذهب ابو الهدى الى ابعد من ذلك : فجعل السلطان يصنع بيديه تماثيل بعض من أعدائه ورسومهم ، لكى يستحضر له الأرواح في دجى الليل ، ويقدم لها تلك الرسوم والتماثيل فتنتقم من أصحابها في النهار وتثأر للسلطان منهم

ذلك هو الرجل الذى وقع عليه اختيار النمساويين لكى يكون لهم عونا على عبد الحميد !

ولما كانت المراة سوف منتر من اللواتى تبفن في تفسير الاحلام

وقراءة الكف ، فقد اختارها القوم أيضا لكي تعاون نديم السـلطان في مهمته

وكان يؤهلها لذلك على الخصوص اتقانها اللغة التركية ووقوفها على دخائل القصور لانها كانت تتردد عليها وتقيم بين نسائها .

تم الاتفاق اذن بين الضابط ستيسل وابى الهدى ..

وفى اليوم التالى ، جيء الى الرجل بالمرأة وبالتحويل على احـد المصارف الانكليزية !

***

جلس ابوالهدى يوما كعادته، يقص على السلطان حوادث الامس، وينقل اليه تقارير الزبانية والجواسيس

وبعد أن انتهى من هذه المهمة اليومية ، ولفق لسيده ما شاء من الاوهام والوشايات ، سكت هنيهة ثم استطرد قائلا :

ـ والآن يا مولاى دعنى أفض اليك بمفاجأة طريفة اعددتها لسيدى وولى نعمتى منذ أسابيع !

فرفع السلطان راسه وبرقت عيناه وسأل :

ـ أى مفاجأة هذه يا صديقى الامين ؟

ـ لقد تزوجت منذ اكثر من شهر امراة شركسية هى على اتصال دائم بعالم الارواح ، تستحضر منها من تشاء وتحادث من تشاء . وقد جعلتها تقوم على مسمع ومرأى منى بتجارب أدهشتنى كما ستدهشك يامولاى . فهل تسمح أن آتيك بها ؟

ـ اجل . اننا الآن فى أشد الحاجة الى معرفة ما يخبئه لنا الغد . أريد أن أعلم هل كانت التدابير التى اتخذناها كافية للقضاء على الحركة الثورية التى يقوم بها رجال تركيا الفتاة ؟ اننى لا أثق كثيرا بذلك العهد الذى قطعوه على أنفسهم باحترام شخصى وعدم الاسترسال فى دس الدسائس ونشر الدعوة التى يعملون لها . ينبغى أن أضربهم الضربة القاضية قبل أن يتمكنوا من استمالة الجيش اليهم .على بالمرأة فى الحال

ومثلت سوفى مثنر ـ التى أطلق عليهـا ابو الهدى اسم « زينب التركية » ـ فى حضرة سلطان البرين وخاقان البحرين !

وظلت أياما تفسر له الاحلام وتستطلع الغيب وتستحضر الارواح وكانت الاحلام كلها تنبيء بالفرج العاجل ، على حين أن الغيب ينحسر عن حوادث جليلة جميعها فى مصلحة العرش ، والارواح تبشر السـلطان بالنصر القريب والفوز المبين !

عادت الطمأنينة الى نفس « الرجل المريض » واعتقـد أن زمام الامور فى قبضته ، وانه سيهزم اعداءه فى داخل البلاد كما خدعهم فى خارجها .

.. ومرت الايام والثائرون يعدون عدتهم فى الخفاء ، وينشرون دعوتهم ومبادئهم فى طول السلطنة وعرضـــها ، داعين الى هـــدم معقل الظلم والاستبداد ، ورفع لواء الرقى والحرية !

والسلطان غافل عما يجرى وراء أسوار قصره وجاهل بالحـفرة التى يحفرها له خصومه .

لكن أبا الهدى أدرك أن الساعة العصيبة قد دنت ، أن ذلك البريق الذى يلمع فى الافق سيتلوه هزيم الرعد وقصف الصاعقة .

أسرع الى زوجته الزائفة واطلعها على مخاوفه ، وطلب اليهـا أن تعمد الى آخر سهم فى جعبتها فترشقه ، على أمل أن يصيب الهـــدف ويغنم الاثنان ما يرغبان فيه : التجاء السلطان الى دولة النمسا ووضع نفسه تحت حمايتها ..

***

وفى الثالث من شهر ابريل سنة ١٩٠٨ قبيل الظهر ، دخل أبو الهدى الصيادى على سيده مصطحبا معه زوجته ، وقصت الزوجة على السلطان الرؤيا التى هبطت عليها فى الليلة السابقة :

ـ رأيت يا صاحب الجلالة نسرين قاتمين يحلقان فى الفضاء ... هبط واحد منهما واستقر على قبة القصر اليمنى ، وتبعه الآخر واستقر على القبة اليسرى .. ثم ضم الاثنان أجنحتهما وارسلا فى الفضـــاء صيحات مزعجـة . حين ذاك رايتك خارجا من القصر وقد القيت على كتفيك الطيلسان الارجوانى ، وبسط النسران أجنحتهما من جـــديد وطارا اليك ، وبعد أن رفرفا لحظة فوق رأسـك أخذاك بين الاجنحة التى انضمت عليك كما تنضم اذرع الامهات على البنين . لقد عرفت النسرين يا مولاى : هما النسران النمساويان !

سكت عبد الحميد واكفهر وجهه . ثم سأل :

ـ وما معنى هذه الرؤيا ؟

ـ انه يجب عليك يا صـاحب الجـلالة أن تطلب من صـــديقك الامبراطور فرانز جوزيف النمساوى أن يحمى شخصك المحبوب ويمنع أعداءك الثائرين عليك من تنفيذ خططهم والاعتداء على عرشك !

***

وفى اليوم الرابع من ذلك الشهر ، قالت المرأة للسلطان أن الرؤيا قد لازمتها طول ليلها .

وفى اليوم الخامس أيضا ...

وفى اليوم السادس والسابع كذلك ...

وفى اليوم الثامن نهض السـلطان عبد الحميد من نومه مذعورا وارسل فى طلب أبى الهدى وزوجته ...

ولما مثلا بين يديه صاح بصوت منهدج :

ــ الرؤيا ! ... الرؤيا ! ... لقد رأيت ايضا النسرين واخذانى بين اجنحتهما كما فعلا أمامك يا امراة ...

ــ الارواح الساهرة عليك يا مولاى تملى ارادتها ...

ــ اذن .. لنكتب الى صديقى الامبراطور ...

هكذا أثرت النمساوية فى مخيلة السلطان ، فجعلته يرى فى نومه الحلم الذى ادعت انه عاودها أربع مرات . فاعتقد أن الارواح التى تعطف عليه وتحرس حياته تشير عليه بالالتجاء الى النمسا وطلب حمايتها ...

فتناول ورقة وسطر عليها بيده برقية الى الامبراطور فرانز جوزيف ...

وظل يتردد يوما كاملا قبل ارسالها ...

لكنه فى اليوم العاشر من شهر ابريل ، قرر أن يسلمها الى مكتب البرق بعد أن وضعها بالارقام المتفق عليها ...

وارسلت البرقية ...

وصادرها الموظفون المنتمون الى حزب تركيا الفتاة وحلوا ارقامها وفهموا معناها ، وحملوها الى انور باشا ونيازى بك وصحبهما ...

وحلت الكارثة بالسلطان واتباعه !

فقد كان المتآمرون قد اكتفوا بنتائج الثورة الاولى فى سنة ١٩٠٧ وقبلوا أن يظل عبد الحميد جالسا على عرش آل عثمان ، ولكن تلك البرقية أزاحت النقاب عن مقاصد السلطان ونياته ، فخاف زعماء الثورة على أنفسهم وعلى الدستور الذى انتزعوا الموافقة عليه من عبد الحميد انتزاعا ، فقرروا اسقاط الطاغية والتخلص منه !

وفى اليوم الحادى عشر من شهر ابريل سنة ١٩٠٨ كانت ثورة الجيش العثمانى فى الآستانة !

وفى السابع والعشرين من ذلك الشهر ، دخل الجيش قصور يلديز وأرغم عبد الحميد على النزول عن العرش !

***

اما سوفى مشنر الشركسية الكاذبة والدجالةالجاسوسة فقد توارت عن الانظار منذ ذلك اليوم واختفت آثارها ، ولم يعلم أحد ما حل بها .

وقد ظل ابو الهدى نفسه يجهل مقرها ، فمات قبل أن يصل اليه نبأ عن المرأة التى كانت شريكته فى المؤامرة على السلطان وتقويض عرش بنى عثمان !

اما السلطان عبد الحميد الثانى ابن السلطان عبد المجيد ، فقد سجن بعد خلعه ، ومات فى السجن سنة ١٩١٨ ، وهو فى السادسة والسبعين من العمر ، وكان قد ارتقى العرش فى سنة ١٨٧٦ .

بهرام أغا الجعفري

بشر القـاتل بالقتــل ، والظالم
بالعقاب !



الجوارى فى حرملك السلاطين

كانت تتولى ادارة الحرم السلطانى بالآستانة هيئة من الاغوات اسمها دائرة « اغوات دار السعادة » اسسها السلطان سليمان القانونى. وكان رئيس اولئك الاغوات يحمل لقب « بيوك أغا » ومعناه « الاغا الاكبر » ومركزه بين رجال القصر رفيع جدا . اذ انه يجيء بعد الصدر الاعظم وشيخ الاسلام !

وكان « بيوك اغا » فى عهد السلطان عبد الحميد ، وفى الوقت الذى وقعت فيه حوادث هذه القصة ، يدعى بهرام أغا الجعفرى . وكان رئيس أغوات الاميرة جميلة سلطان ، اخت عبد الحميد ، وكانت تحبه وتثق به ، وهى التى طلبت الى اخيها السلطان ان يعين « بيوك أغا » فأجابها الى طلبها ورفع بهرام الجعفرى الى ذلك المقام الرفيع. فصار الاغا اللعين - وهو ماكر دساس متزلف - يتمتع بنفوذ هائل لا يضارعه فى القصر السلطانى نفوذ . واصبح رضا السلطان موقوف على رضاه . وجعل أصحاب الغايات وأرباب المصالح يقصدون الى ذلك الخصى الاسود لقضاء مصالحهم وغاياتهم. ورأى المقربون من القصر ذلك الرجل الناقص يسير احيانا شئون السلطنة على حسب رغباته واهوائه ، يعزل من هذا المنصب من يريد ، ويعين فى تلك الوظيفة من يشاء . . .

واتسع سلطانه الى حد أن السلطان نفسه اوجس خيفة وداخله الحسد منه . فكاشف أخته بالامر ، وافضى اليها برغبته فى نقل بهرام اغا من تلك الوظيفة الى اخرى أقل منها شأنا . فأوعزت اليه بأن يضع الاغا على راس دائرة الحرم السلطانى ، لكى يدير حركة التجسس على النساء ، ويراقب سلوكهن وحركاتهن وسكناتهن .

ومنذ ذلك الوقت ، جعل بهرام اغا يرفع الى مولاه التقارير اليومية عن كل صغيرة وكبيرة تجرى فى داخل « الحرملك » . ليس فقط فى قصور السلطان ، بل أيضا فى قصور امراء الاسرة المالكة جميعا . وذلك بوساطة رؤساء الاغوات ، الذين كان يغدق عليهم بهرام النعم والعطايا ، مقابل أن يوافوه بأسرار القصور .

***

كان يقيم بالآستانة ، حوالى سنة ١٩٠٥ ، تاجر شاب من بلاد الكرج يدعى محمد سليمان ، يعيش مع أخته « بهيجة » وهى صبية بارعة الجمال ، فاتكة اللحظ ، طويلة القامة ، لم تبلغ بعد العشرين من العمر .

تلك الاخت التى كان الشاب التاجر يحبها حبا جما ، لانهما عاشا معا يتيمين منذ عهد الطفولة ، كتب لها الشقاء من حيث لا تدرى ...

فقد اختفت ذات يوم من البيت ، وعبثا بحث عنها أخوها شهورا طوالا ....

واخيرا ، علم انها تقيم فى قصر السلطان ، وان زبانيته خطفوها من احدى الحدائق على ضفاف البوسفور ، بارشاد بهرام أغا اللعين !

وفار فائر الشاب ! اخته ، الحرة الطاهرة المحبوبة ، تصبح بين صباح ومساء جارية فى القصر السلطانى ، يعبث بعفافها ذلك النمر البشرى ، ذلك « العنكبوت الاسود » كما كانت تسميه نساء القصر ؟

هجر الرقاد جفونه ، وحرم على نفسه الراحة ما لم ينقذ الفتاة المسكينة من الجحيم الذى ساقوها اليه ، ليعيدها الى الهواء الطلق ، الى الحياة الحرة ، ولو ملطخة بما لحقها من عار فى تلك البؤرة التى يسمونها حرملك السلطان !

وبلغ محمد سليمان مقصده ومرامه ، بعد جهد وعناء ، فقد تمكن ، بمساعدة الاغوات وبفضل ما بذله من مال ، من اخراج اخته بهيجة من قصر السلطان ، الى قصر امير من الاسرة المالكة ، رضى بأن يشملها بحمايته ، بعد أن تعهد له أخوها بالنزول عن دين كان له فى ذمة ذلك الامير !

لكن المسكينة اخرجت من حبسها ... لكى تقذف بها الاقدار الى حتفها وتواريها فى قبرها ...

فقد بلغ السلطان خبر فرارها ، فعهد الى بهرام أغا رئيس الاغوات فى أن يبحث عن المرأة التى يعود اليه الفضل فى جلبها الى القصر ، ويعيدها اليه حية أو ميتة . والا أنزل به العقاب الشديد !

خاف الاغا على حياته ، واطلق ثعابينه وصنائعه فى أثر الطريدة الشاردة !

ولم يمض على ذلك اليوم اسبوع واحد حتى كان أمر بهيجة قد انفضح وسرها قد انكشف !

وأعيدت بهيجة الى قصر السلطان وقادها بهرام الى القاعة المعروفة بحمام السلاطين !

وذلك الحمام شيده السلطان سليمان القانونى من المرمر الايطالى الابيض والوردى ، وكان الجالسون على عرش آل عثمان يختلفون اليه للاستحمام بين السرارى والجوارى منشدات راقصات !

هناك وافاها السلطان عبد الحميد الثانى ، الذى غادر قاعة الاستقبال ومنصة العرش ، وجاء الى ذلك الحمام لكى يرى بعينيه مقتل امرأة أراد استعبادها فتمردت على ارادته !

هناك ، أمام ذلك الرجل الغريب الاطوار انقض العبيد على بهيجة الضعيفة ، واخمدوا انفاسها خنقا بأصابعهم الغليظة وتركوها بين يدى سيدهم ومولاهم جثة هامدة !

***

هرب محمد سليمان ، ولجأ الى مصر حيث تعاطى التجارة ومات فيها بعد الحرب العالمية التى اشتركت فيها الدولة العثمانية فى سنة ١٩١٤ ، وخرجت منها مغلوبة مفككة منهارة !

مات ، ولكنه عرف ، قبل موته ، أن بهرام اغا الجعفرى ، الذى كان سبب شقائه وشقاء أخته وخنقها فى حمام السلاطين ، قد قتل أيضا مخنوقا بيد جارية شهدت طغيانه وعانت من قسوته فى عهد عبد الحميد واسترجعت حريتها بعد خلع « السلطان الاحمر » والتقت مصادفة ببهرام أغا الجعفرى الذى التحق بخدمة السلطان محمد الخامس ، وكان يبتاع من السوق بعض السلع ، فوثبت عليه المراة وخنقته !

ابن الشركسية

كان الأبناء المجهولون فى قصـــور السلاطين أكثر من الأبناء المعروفين !



مصطفى كمال باشا (أتاتورك)

زعيم الثورة التي أطاحت بالعرش العثماني وحولت السلطنة الى جمهورية

طال الحديث وتشعب ، بين الامير العثمانى السابق وبينى ، على ظهر الباخرة التى كانت تقلنـا الى أوروبا ، عن الأسرة العثمانيـة التى تشتت افرادها فى الشرق والغرب ، بعد الغاء الخلافة وقيام النظـام الجمهورى فى تركيا على انقاض السلطنة . وتناول حديثنا علىالخصوص عدد أفراد الأسرة الباقين على قيد الحياة : فقال محدثى :

ــ كان الأبناء المجهولون ، فى قصور السلاطين من آل عثمان ، اكثر من الابناء المعروفين !

ثم أردف قائلا :

ــ تحضرنى الآن قصة واحـد من أولئك «الأمراء» المجهـولين . فاسمعها كما اعرفها !

وها هى ذى القصة التى رواها الأمير المعروف ، عن الأميرالمجهول، ابن الشركسية !

***

فى قصر « أورته كوى » بالآستانة ، خرج السلطان محمد السادس وحيد الدين الى شرفة تطل على الحدائق الغناء ، وتنفس الصعداء بعد أن ضاق صدره فى داخل ذلك القصر الذى استحال بالنسبة اليه سجنا ممقوتا . .

كان ذلك فى سنة ١٩٢٢ . . .

الوطنيون الأتراك ، بقيادة مصطفى كمال باشا ، يبتسم لهم الحظ، وتعقد فوق رءوسهم الوية النصر فى ميادين القتال ، وبعد أن اجلوا العدو المحتل عن بلادهم ، راحوا ينادون بمبادىء جـديدة ، ويدعون الشعب الى اعتناقها .

والسلطان قلق مضطرب تساوره الهواجس وتكتنفه الهموم . . .

يخاف على حياته المهددة . . .

ويخاف على السلطنة أن تفلت منه . . .

لقد جاهر رعيته بالعداء . ونصر الغريب على أبناء قومه ، وكان سلاحا للأجنبى على الاحرار المجاهدين والابطال المحاربين ، الذين ابت نفوسهم الضيم فامتشقوا الحسام واقسموا الا يعيدوه الى غمده الا اذا عادت الى تركيا حريتها وحقوقها ! .

وحيد الدين يمثل الرجعية والخمول والقنوط والاستسلام !

ومصطفى كمال يمثل النهضة والحزم والامل والاباء !

جلس السلطان وقد شعر بأن عرشه يتهدم ، واخذ راسه بين يديه وأطلق العنان لأفكاره تسبح في عالم المخاوف والاحلام المزعجة ...

وبينما هو على هذه الحال اذا بصوت رخيم يطرق اذنه ، بل يداعبها كالنسيم . فرفع السلطان راسه مجفلا وقال :

ـ من هنا ؟

ـ انا يا مولاى . رايتك وحيدا حزينا كئيبا فجئت اطرح نفسي على قدميك وابعث في نفسك ـ اذا استطعت ـ بارقة أمل ورجاء !

فبسط السلطان يده للمراة الواقفة امامه ، واخذ راسها بين يديه وطبع على جبينها قبلة ممزوجة بالعبرات !

هي « اقبال » الشركسية . او بالأحرى « اقبال » التي تدعى انها شركسية ولكنها في الحقيقة يونانية من بنات الجبال ، قادها أحد تجار الرقيق الى قصور السلاطين ، وادخلت كغيرها في حرم محمد الخامس وظلت تقيم فيه ، فشاهدت الانقلابات التي توالت على تركيا ، وعطفت على وحيد الدين الذى نبذه الجميع ما عداها واضمروا له الشر على حين كانت وما تزال تضمر له الخير !

ذلك لانه انقذ ولدها من الموت !

كان ذلك الولد في الثامنة من عمره . وحدث ذات يوم ان فاجأ السلطان احد ضباط الحرس يعتدى عليه فيضربه الولد بقبضة يده ، ويقبض الضابط على عنقه ويهم بخنقه لو لم يفاجئه وحيد الدين وينقذ الفريسة من أيدى الجلاد .

وكان جميع من في القصر يعتقدون ان ذلك الولد ابن عامل من عمال الحدائق ويجهلون انتسابه الى اقبال الشركسية ...

لكنها افشت الحقيقة للسلطان بعد ان انقذ ولدها . غير انها لم تبح له الا بما ارادت أن تبوح به !

فاخذها تحت رعايته وصارت منذ ذلك الوقت تلازمه وتتفانى في خدمته !

واحبها وحيد الدين ، فكانت شعاعا يضيء ظلام وحدته وعزلته !

***

جاءته ذلك اليوم وهي على غير عادتها قلقة مضطربة . ففطن السلطان الى ذلك وطلب منها أن تبوح له بمكنونات صدرها وان تطلعه على ما اخفت من أسرار حياتها . فقالت اقبال :

ـ ما جئت اليك الآن يا مولاى الا لكى أبوح لك بكل شيء . ولكن على شرط واحد لا بد من اجابتي اليه . أتعدني بذلك ؟

ـ اجل اعدك .

ـ وهذا الشرط هو ان تدعني أرحل وولدى عن الآستانة ولن يسمع أحد شيئا عنا بعد اليوم .

فانتفض وحيد الدين وقال :

ـ تريدين ان ترحلى وانت الشخص الوحيد الذى أرتاح الى مجالسته في هذا القصر حيث يحيط بي الأعداء من كل جانب ؟

ـ لا بد من ذلك يا مولاى : اسمع قصتى واحكم . . .

وبعد سكوت قصير مسحت فيه اقبال دمعة نفرت من عينها واستعادت فيه تذكارات ماضية مؤلمة ، جعلت تقص على السلطان مأساة حياتها . قالت :

ـ لا اطيل عليك الشرح فأسرد لك التفاصيل عن نشأتى فى بلاد اليونان ـ اى فى بلادى . لكنني اكتفي باطلاعك على ما حدث لى بعد ان وقع على اختيار السلطان محمد الخامس ، لكى أكون بين نسائه .

« انك أدرى منى بعادات القصور وتقاليد آل عثمان . فقد حرم على نساء الحريم ان يلدن ابناء الا اذا كن يحملن لقب سلطانات القصر . ولم اكن احمل ذلك اللقب لان عدد من تخولهن التقاليد حمله كان مستوفيا .

« حدث مرة أن أقيمت في هذا القصر ـ قصر أورته كوى ـ مأدبة فاخرة دعى اليها عدد عظيم من الناس ودعيت الى الرقص والغناء . فلبيت الامر ورقصت وغنيت .

« وفى تلك المأدبة علم السلطان محمد الخامس ان الحرب العظمى قد اندلعت نيرانها بين الدول اذ انه كان يجهل كل ما يجرى خارج قصره . وبعد انصراف المدعوين استبقاني السلطان وقضيت ليلتى فى مخدعه وكان ثملا .

« ومرت الايام والاسابيع والشهور. وكنت قد شعرت بأننى حامل وخفت على الجنين أن تناله يد الاذى فأخفيت الامر عن الجميع .

« لكن التستر كان صعبا ، فاضطررت في النهاية أن أبوح بسرى ، واصدر السلطان امره بأن يقتل المولود فى الحال .

« ذعرت لتلك الارادة . وجعلت افكر فى طريقة انقذ بها الطفل المسكين البرىء . فاتفقت مع القابلة وحملت ولدى الى مكان امين اخفيته فيه .

« وظل السلطان معتقدا ان الطفل قد مات .

« اما انا فكنت أرى ولدى سرا فى بادىء الامر عند البستانى الذى عهدنا اليه فى تربيته والسهر عليه ، حتى بلغ الثالثة من عمره ، فادعى البستانى انه ولده وصرت اراه جهرا وبلا خوف .

« فذلك الصبي يا مولاي الذي انقذته القابلة من الهلاك منذ ثمانية اعوام ، والذي انقذته انت من يد الضابط الذي أراد به سوءا منذ بضعة اشهر ، هو ابن اخيك السلطان محمد الخامس ، وفي عروقه تجري دماء بني عثمان . واذا كنت أرجو منك أن تدعني أرحل بولدي فليس ذلك لانني ارغب في الحرية ، فسيان عندي البقاء أو الرحيل ، بل من أجل الولد اطلب ذلك لكي انقذ من الهلاك اميرا عثمانيا مجهولا ! »

***

سكتت المرأة بعد أن قصت على السلطان قصتها . فاشفق وحيد الدين عليها وقال بصوت متهدج :

ـ اقبال ، انني أشعر بدنو اجل السلطنة ، فانقاذ أمير من أمراء الاسرة المالكة واجب محتم . كان السلطان بالامس يفتك بأفراد أسرته لكي يأمن شرهم . أما اليوم فقد تغيرت الاحوال وتبدلت الظروف : سترحلين بولدك يا اقبال !

***

وفي اليوم التالي ، غادرت اقبال الشركسية قصر « أورته كوى » ورحلت عن الآستانة بجواز سفر يحمل اسم « مدام ايفانيا كريستودولو وابنها الفتريس » .

وبعد اسبوع واحد خلع مصطفى كمال السلطان محمد السادس وحيد الدين وأجلس الامير عبد المجيد على عرش آل عثمان المتزعزع !

ثم كان ما كان من الغاء الخلافة والسلطنة وطرد عبد المجيد وقيام الجمهورية على انقاض الماضي !

***

وفي شهر مايو سنة ١٩٢٦ ورد على الخليفة عبد المجيد المنفي كتاب من روسيا ففضه وقرأ فيه :

« مات الامير سليم ابن السلطان محمد الخامس قبل أن يبلغ الحادية عشرة من عمره . « والدته الحزينة »

ولم يعلم أحد ماذا حل باقبال الشركسية !

فهرس